

كتاب الصحائف

« تأليف »

عبد الرحمن شكري

لن يبلغ المرء العلى بحقوقه * الا اذا بلغ العلى بحقوقها

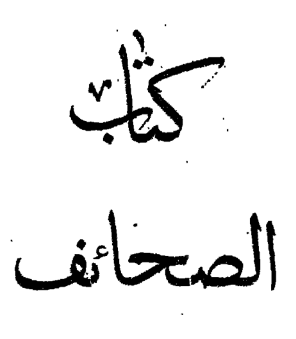
فذر الحقوق الى الفرائض انها * لذات معبود الخصال عريقها

عبد الرحمن شكري

بمطبعة جرجي غرزوزي بالاسكندرية

سنة

١٩١٨



« تأليف »

عبد الرحمن شكري

مطبعة جرجي غرزوزي بالاسكندرية

سنة

١٩١٨

الحياة الجليلة

ليس هناك صلة بين الكبر وعزة النفس فان الكبر سببه غفلة المرء عن حقارة مايتيه به من مظاهر الحياة وأما عزة النفس فسببها عرفان المرء جلالة النفس فالكبر هو غرور المرء بما له أو جاهه أو ثيابه أو أدبه أو علمه وأما عزة النفس فهي صحو من ذلك الغرور أليس بين الناس من هو ذليل النفس واسع التيه عريض الكبر . اذا فطن المرء لعظم الحياة رأى ان له رأياً وحقاً في شؤون هذا الوجود أو كأنه يحمل الوجود على كتفيه فاذا غفل عن عظم ذلك الحمل وجلالته كان مثل البهائم يساق الى حيث يشاء سائقه وانما سائقه هو ذلك العظيم الذي صحا من نشوة العادة وخلص من رق المظاهر والذي لا يبيع عزة نفسه وحريتها وصحة ضميره بالخفض والجاه والذي يهزأ بالفقر والجوع اذا كان الشبع لا ينال الا باذلال النفس ومن أهان نفسه فقد أهان الناس فيها فالعظيم هو الذي يسخر من احتقار الناس اذا كان رضاهم لا يستجلب الا بان يقيد نفسه بقيود العادة القبيحة وبأن يتزين بتلك المظاهر البيضاء التي كلها رياء ونفاق والتي يستر بها الناس سواد نفوسهم والضئيل هو الذي يحسب ان جلالة الحياة في ان يأكل مريئاً وان يشرب رويا ويتحلى ويتزين ويسمي محترماً مؤدباً .

ايها البائعون بالوفر عز النفس ان النفوس ذخر جليل

المصريون قوم تعوزهم خشونة في الحق سببها صدق السريرة وإباقة من

غفلة الحياة فان مر الايام يجعل الحياة عادة لا يهمنا صلحت أم فسدت وان تلك الظواهر البيضاء الناعمة التي تزلق عن نفس صاحبها كما يزلق الزيت عن قفا الزيات تغري المرء باكاذيب الحياة الحقيرة من غرور وخداع ورياء وكذب وتيه وهذه المظاهر تنسيه عظم الحياة وتشغله عن التماس القوة في الحق والرأي واليد فاذا فطن المرء الى عظم النفس التي هي جزء من أجزاء روح الوجود لرأى ان يجعل صحته وراحته في سبيل اعزازها ضحية فان المرء يعصي الله ويغضبه بأن يهين نفسه ويحتقرها ولا تنهض الامم الا اذا أعزت نفوسها فكيف نهض في مراقي الحياة النبيلة ونحن نعبد النعيم أكثر من عبادة الجليل ونعيش في ثيابنا وجاهنا بدل ان نعيش في نفوسنا باعباد المظاهر لقد المتكم عن عظم الحياة حتى صار اكثر الناس يعيش في آراء الناس وحتى صار اكثرهم يعيش مقبوراً في الاحوال التي تحوطه أو مدفوناً في ثيابه وحتى صار أكثرهم يحسب انه يستخدم قوى عقله كي يكسب رزقه ويصون جسمه ويحفظ له صحته وهذا زعم فاسد فان المرء اذا بلغ من التهذيب مبلغاً علم انه يلتمس من الرزق ما يقيم حياته كي يستخدم قوى عقله فهو يعيش ليفكر فالذي يحسبه وسيلة وهو التفكير انما هو الغرض الاقصى والذي يحسبه غرضاً وهو الحياة انما هو وسيلة الفكر والعمل

اول فرض كتب على المرء هو ان يحس عظم الحياة وجلالة النفس ولم يكن ذلك الاحساس أول فرض لانه اكثر جلباً للمنفعة من غيره ولكنه كان أول فرض لان في كل نفس شيئاً من الله صلاحه في ان يحس المرء عظم الحياة وجلالة النفس فليس الذي يأتي الخير ويواقع الفضيلة رغبة فيما وراءها

من المنفعة أو رهبة مما يجلبه الشر على فاعله من الاذى بجليل النفس مثل الذي يأتي الخير ويزاول الخلق الحميد احساساً بعظم النفس فان كل نفس لها راي وحكم نافذ في شؤون هذه الحياة فاذا بلغ المرء من التهذيب منزلة يرى فيها ان على نفسه فرضاً نحو الحياة والوجود فرضه عليها عظمها وجلالتها من اجل انها عضو من اعضاء تلك الروح الخالدة التي هي سر الحياة وقوة من تلك القوى التي ترجيه الى منازل الرقى كان اقرب الى الله من ذلك المختبل الذي به مس من الجنون الذي يسهر الليل يردد كلمات لا تغني عنه شيئاً كلمات لا تغذي عقله ولا تربي نفسه ولا تقوي جسمه والعبادة هي ان يقوى المرء عقله وروحه وجسمه. يحسب كثير من الناس ان ترديد تلك الكلمات يقوي فيه عاطفة التقوى وهو لا يفعل ذلك وليست التقوى ان يعف المرء خوفاً وجبناً بل هي عفاف المرء من اجل عرفان عظم الحياة وجلالة النفس ـ الايمان مزيج من ضدين الطمأنينة والخوف غير انه في روح العظيم اكثره طمأنينة وفي روح الحقير اكثره خوف والطمأنينة هي تلك الثقة بالله التي تبعث المرء الى العمل والسعي والقلق رغبة في صلاح الحياة واحساساً بعظمها فاذا سأل سائل كيف تجتمع الطمأنينة والقلق قلت ان الطمأنينة هي ان يثق المرء بالله واما ذلك القلق فهو رغبته في صلاح شؤون الحياة وطموحه الى منازل الكمال فيها واذا وثق المرء بالله فرغ للاهتمام بامور الحياة بعد ان كانت قلة وثوقه من الله تدفعه الى ان يمضي حياته في تعديد حبات المسابيح وليست الطمأنينة ان يكون الضمير نائماً ولكنها ان يكون الضمير يقظان هادئاً .... اذا نظرت ايها القارىء الى عظم همم

المسلمين التي بسطت مدنيتهم بين اسبانيا والصين ثم نظرت الى ضعف عزائمنا وخمود هممنا وسألت نفسك عن سبب ذلك علمت ان السبب هو امتلاؤهم من روح الدين وانا قد مات روح الدين في قلوبنا وصرنا نحسب ان مظاهر الدين هي روح الدين فلو سألت شيخاً من مشايخنا أي الناس اقرب الى الله قال لك هو الذي يسهر الليل يقرأ الاوراد ويعد حبات المسابيح ... الا ان اقرب الناس الى الله هو اعظمهم احساساً بعظم الحياة واكثرهم معرفة لجلالة النفس ان روح الدين هي قلق المرء رغبة في الكمال وهي اباؤه ان يكون قتيل العادات والمظاهر وهي ان يثير المرء قوى نفسه وعقله

أكذب الدين ما ينيم قوى المر ء كما يخرس الرياح الركود[1]

قوموا بنا نهدم كل عقيدة بنيت على قلة الوثوق من الله و نعلي شأن كل عقيدة بنيت على حبه واجلاله انك اذا أردت ان تعمل لدينك فاعمل ما فيه صلاحك وصلاح الناس في هذه الحياة وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم (أعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) هذه كلمة من الكلمات التي لا تموت أبداً انظر الى قوله (أعمل لدنياك كانك تعيش ابداً) أليس معنى هذا القول ان تعمل ما فيه صلاح الكون وانظر الى قوله (أعمل لآخرتك كانك تموت غداً) أليس معناه انه ينبغي لك ان لا تزدهيك مظاهر الدنيا تتجهل جلالة النفس أليست هذه عقيدة العمل والامل التي رفع الاوربيين اعتقادهم بها وخفضنا ذهولنا عنها جاءنا

(١) من قصيدة الحياة والعبادة في الجزء الثاني من ديوان المؤلف

سيدنا محمد عليه السلام ليعلمنا كيف نعبد الله بان نعبد القوة والحياة والجمال لا بان نعبد المرض والضعف والموت والسل ورضاب المتوهين جاءنا رسول الله يعلمنا جلالة النفس وعظم الحياة جاءنا يعلمنا كيف نعمل لدنيانا كاننا نعيش ابداً ما رأيت روح الدين ظاهرة في كلمة مثل ظهورها في هذه الكلمة (أعمل لدنياك كانك تعيش ابداً) فان فيها حثاً على الوطنية والحضارة والعمران حثاً على القلق رغبة في انتصار الجليل على الحقير حثاً على عبادة القوة حثاً على الثقة بالله حثاً على معرفة عظم الحياة حثاً على التخلص من رق العادات التي تقتل جلالة النفس . أليست هذه الكلمة سر تقدم الامم ورقيها ومعنى الحضارة والعمران ؟ ثم يقول رسول الله (أعمل لآخرتك كانك تموت غداً) أليس في هذه الكلمة حث على التخلص من رق زخارف الحياة ؟ ومانع للمرء ان يكون عبداً للجاه او المال مانع للمرء أن يكون قتيل الكبر وغيره من اكاذيب الحياة الحقيرة مانع للمرء ان يذل نفسه لتلك المظاهر البيضاء التي كلها رياء ونفاق مانع للمرء ان يعيش في آراء الناس مانع للمرء ان ينيم ضميره بأن يطعمه من الرغبة في احترام الناس اياه ؟ والرغبة في احترام الناس هي داء النفوس واذا شئت فقل هي خشخاش الضمائر

يحسب المرء انه اذا اخذ من العلم بنصيب صار من الخواص وهذا وهم فان للنفس عامية مثل عامية العقل فمن أراد ان لا يكون عاميّ النفس كان خليقاً به ان يزجيها الى التماس جلالة الحياة فان للحياة جلالة لا يفهمها قتلى المظاهر الذين يحقرون انفسهم بمزاولة الحقير تلك المزاولة التي تغطي على عظم

الحياة وتقتل فى النفس عزة النفس وانما يحبب الحقير الى المرء جهله الصلة التي بينه وبين الله من طريق الحياة الخالدة ومكانه في الحياة فانه لو عرف ان في نفسه عزمات ساكنة وقوى نائمة لقلق كل القلق رغبة في اثارة تلك القوى النائمة فأما اثارها واما اراق حياته في سبيلها وان من فعل ذلك كان كأنه استدان حياته فرد الدين لدائنه ورد معه ربحاً كبيراً . يقول بعض الحكماء بالتماس السكينة والراحة والطمأنينة التي يدخلها التهذيب على النفس وهو لا بأس به الا ان ذلك السلم قد يصير خمولاً وتلك السكينة غفلة وتلك الراحة موتاً لجلالة النفس فليست جلالة النفس في سكونها ولكنها فى هياجها ويقظتها فان النفس لا تكون نبيلة الا اذا كانت هائجة يقظى واعنى بهياجها طموحها الى الكمال والقوة والجمال فاذا هدأت يأساً وعجزاً او مللاً او التماساً للراحة كانت مثل الرماد ليست قوة النار فيه ... ان اكثر نفوس هذه الناس موؤدة بين جنوبهم مقبورة في الظاهر مدفونة في المقابر

الغفلة واليقظة

يخيل لي ان الناس مثل رجل سكران لا يقدر ان يخطو خطوتين الى الامام حتى يخطو خطوة الى الوراء ومن اجل ذلك كان سيرها في سبيل الرقي الخلقي بطيئاً. ان السكران ليخطو خطوة الى يمينه وهو يحسب انه سائر الى امامه وهكذا الناس في الحياة . وانه ليخطو خطوة الى امامه ثم يستريح من عنائها ويحسب انها كانت سفراً طويلاً وكذلك الناس في الحياة ولقد زاد في اعتقادي صحة هذا التشبيه ذلك الفخر العريض الذي يملأ اوداج الناس اذا

عدوا حسنات الحضارة فان قولهم مثلاً « قد بلغنا منزلة جليله من منازل الرقي » مثل قول السكران بعد كل خطوة يخطوها « وصلنا بالسلامة »

لمثل هؤلاء الفاخرين نقول مقال ماثيو أرنولد « انكم تصفون مراحل التقدم بكلمات ينبغي ان لا نصف بها غير مرتبة الكمال »

ان كل ناقد ضحية نقده وسبب ذلك انه اذا رأى قومه قد وقفوا الحاظهم على جانب من جوانب معنى الحياة حتى حسبوا ان ذلك الجانب هو معنى الحياة كاملاً كان فرضاً عليه ان يلفتهم الى جوانب اخرى ولا يزال يلح عليهم في ذلك حتى يغيب عنه ذلك الجانب نخوف الناقد ان يكون ضحية الحاحه خوف يبعثه الجبن والخوف وهذان باعثان لا يليقان بمن نصب نفسه لخدمة قومه فلا رأي لمن يلومنا في الاكثار من ذكر قتلى المظاهر والالحاح في التخلص من العادات التي تقتل عزة النفس وجلالها وتغري المرء بالاهتمام بصغيرات الامور

اذا اردت ان تعرف مكان أمة من القوة فالتمس الناس في مجالسهم واسمع ما يقولون فاذا رأيت انهم يعنون بالصغائر أو يستقبلون الحق كما يستقبل السيد عبده فاعلم ان سهامهم طائشة . ولست اعني بالاهتمام بالصغائر التبسط والفكاهة فان المرء قد يجد من وسائل التهذيب في الفكاهة ما لا يجده في بعض الجد وانما اعني الحديث الذي يسفل بقائله الذي يبين عن غلظ في كبد قائله وخمود في شعوره وينم عن نفس لا تحس ما حولها من عوامل الخير والشر . أليس من العجيب ان أجلس الى صديق فاحدثه مثل هذا الحديث وحولي من عوامل الشر ما يستنهض الهمم لمناجزته ومن

اسباب الشقاء ما يستصرخ النفوس الكريمة لمعالجته ؟ أمم تحيا وأمم تموت وأناس يشقون من شرق بالنعيم والوفر وآخرون يشقون من ظمأ اليه . كل هذا حولي وانا احدث صديقي حديث النفس الضئيلة هذه الغفلة من لؤم الانسان أليس من لؤم الانسان ان يجود الناس في انارة الحفلات وشراء اعلام الزينة بالمال الجم وحولهم أناس يعالجون الجهل والفقر ؟ مَثَلُ الذين يفخرون بحسنات الحضارة مَثَل الذين يفخرون بتليد آبائهم ماذا صنع الفاخر بحسنات الحضارة حتى يفخر بها هذه ليست حسناتنا بل هي حسنات السابقين وفخر المرء بما ليس له دليل على صغر في همته. كيف تفخر بالالات والمخترعات انها ليست من صنعك وكيف تفخر بالانظمة والشرائع التي بسطها سعي العاملين هل انت وطأت سبيلها ؟ لك ان تفخر بها من اجل انها من صنع الانسان ولكن ليس لك ان تفخر بها لانك زيد او عمرو ان الفخر استراحة وترويض للنفس من عناء العمل بعد ان يتم المرء فرائض الحياة وهو لا يتمها الا ساعة موته

ان في هذا الوجود من الشر ما يخجل الفاخر ولكن اللؤم قد تغلغل في نفوسنا حتى صرنا لا نخجل من مظاهر الشقاء وسبب ذلك اننا لا نعبد القوة في الرأى والخلق والجسم فان عبادة القوة تلهينا عن الصغائر وتغرينا بجليلات الامور فتلهينا عن ان نبذل المال في غير وجهه فنضن به عن الحفلات والزينة ونجود به في مناجزة الشر

لقد منيت مصر في هذا الزمن بفئة من الكتاب يلومون من يريد ان يلفتهم الى جليلات الامور وان يلهيهم عن صغيراتها بأن يهيج فيهم عواطف

الرحمة والكرم والحب فاذا رأوا اديباً يريد ان يفعل بهم ذلك بأن يليح لهم بمناظر من مناظر الشقاء قالوا هذا رجل جازع من الشر هذا شاعر يهتدي بالخيالات والاوهام هذا رجل قد غلبه الحمق حتى صار يطلب اسباب الكمال هذا رجل ينظر الى المظلم من جوانب الحياة

هؤلاء الكتاب يرددون كلمة لا يفهمونها فيستعملونها في غير مكانها وهي قول بعضهم في الباطل هذا خيال شاعر وهو ربما عنى بها الخيال الفاسد الذي يستخدمه صغار الشعراء واصحاب الذوق العليل في الشعر أو انه يوردها على سبيل الفكاهة لان خيال الشاعر العظيم عون للحق وتفسير له وهو مثل المنظار المكبر يستعين به الشاعر في ايضاح الحقائق واظهار الصلات التي تربط الاشياء والمشابهة التي بينها . قال ماثيو ارنولد ان المرء مغرى بأن يجعل بين المعاني والخلق صلة والمعنى لا يؤثر في النفس تأثيره ولا يملكها الا اذا أثاره الخيال بضيائه وأحيته العواطف الكريمة بنارها وأنضجته بحرها

فكيف نلوم الشاعر الذي يقول لنا ان حياتنا التي نعيشها أكثرها خلق كاذب وان عمرنا أكثره جريمة مستطيلة ان عجزنا عن ان نبلغ المرتبة التي يدعونا اليها ينبغي ان لا يمنعنا من عرفان الحق فقوله ان حياتنا أكثرها خلق كاذب هو مغالاة ولكنها مغالاة تلفتنا الى الحق باظهار ما خفي من عظم الشر فهو لا يدعونا الى تطلب المستحيل وهو لا يدعونا الى اليأس من اصلاح الفاسد وهو لا يقول ان الشر الذي في الوجود أكثر من الخير الذي فيه فلو كان الشر كله غالباً للخير كله أو كان الشر اكثر

من الخير لانتفت أسباب الحياة وهلك الكون ان الانسان اذا وقف في غرفة ضيقة عظم لديه جسمه فاذا وقف عند شاطيء البحر فوقه السماء وحوله الفضاء الواسع صغر لديه جسمه حتى يخال ان جسمه وهو في غرفته أكبر منه وهو عند شاطيء البحر وهذا المثل يفسر لنا سبب غفلتنا عن عظم الشر فان الخير عظيم واسع وعظمه يغطي على عظم الشر ويصغر جسمه

مثلما صغر الفضاء عظيما أكبرته دعائم الحيطان

فنحسب ان الشر قليل وهو ليس بقليل ... حكمة المرء امله ولكن بعض الامل يغري الناس بتأجيل العمل وتسويف السعي اتكالا على اقتراب مطلوبهم لان الامل مثل المنظار الذي يتخذه صاحب النظر القصير كي يقرب له البعيد فينبغي للمرء ان يجعل مساعيه وسائل آماله وهو لا يجعلها كذلك الا اذا عبد القوة

وقد اختلف المفكرون في تعيين ما ينبغي ان يكون احساس المرء بالشقاء فقال بعضهم بالتماس سكينة النفس وتلك الطمأنينة التي يدخلها التهذيب عليها والعاملون الان يقاتلون ذلك الميل الى التماس سكينة النفس الذي أدخله أمثال جيتي وشيلر على قلوب قرائهم فان مسلكهم وعر ينبغي ان لا يلجه الا من أحس في نفسه من القوة ما ينجيه من الغفلة ونوم الضمير

واي رجل يقدر ان يجمع في نفسه بين الاحساس بالشقاء والسكينة والامل ويقظة الضمير بحيث لا يجعل احساسه بالشقاء غالباً سكينة

نفسه ولا سكينة نفسه ماحية احساسه بالشقاء واذا غلبت سكينة النفس احساس المرء بالشقاء كانت مطية له الى الغفلة ونوم الضمير وصارفة له عن عبادة القوة واذا غلب احساسه بالشقاء سكينة نفسه خيف عليه اليأس والنظرة السوداء

الحياة وسيلة

يعجبني من المرء ان يكون جريئاً على القوة فهو فى جرأته عليها كالطفل يلعب بسيف من الخشب على انها قد تكون فى يده كسيف قاطع في يد ذلك الطفل وخليق بالمرء ان يناهض القوة فاما تملكها واما اهلكته . وعلى ذكر ذلك نقول ان هنالك نوعاً من الحزم هو حزم التجار والموظفين يزجر اهله عن التماس القوة خشية الفشل فيوهمهم ان عظم الحياة في سلوك السبيل الموطأ وانما عظم الحياة في سلوك مجاهل الحياة التي لم توطأ وان ينفق المرء منها فان الحياة مثل الدراهم قيمتها في تصريفها وكما انك تنفق من مالك لتشتري حاجاتك كذلك ينبغي ان تنفق من حياتك كي تشتري بها القوة . اذا نظرت في أبطال القصص المشهورة رأيت انهم كانوا ينفقون من حياتهم فانهم لولا ذلك ما رغب في قراءة اخبارهم احد فان القراء ليشعرون ان كل انسان وسيلة في يد القضاء والوسيلة لا تصان عن الاستعمال فانك اذا صنتها عنه لم تعد وسيلة وكذلك المرء اذا كان حزمه ينأى به عن تعرف المجهول او مزاولة الجديد لم يؤد فريضة الحياة فانما فريضتها ان يكون وسيلة يرمي بها كل مرمى

كلما عظمت الحضارة كثر استعمال الوسائل وحياة الافراد وسائل منها فتصغر حياة الفرد عند المفكر بقدر اكباره حياة النوع فحياة الافراد ضحية لحياة النوع والعظيم هو الذي ينفق من حياته وهو واسع الامل مستبشر بذلك الانفاق لان فيه سر الفرائض ومعنى العبادة ولو ان الله لم يأمرنا بشيء غير تلك التضحية لكان قد أمرنا بكل خير ونهانا عن كل شر وانما العقائد كلها تفسير لتلك الفريضة او حث عليها فان المرء ربما ضل اذا قيل له انفق من حياتك فانك لا تعيش للحياة الفانية ومطالبها بل انت الروح الخالدة التي في الناس قاطبة ومن افاق الى ذلك لم يجد في تضحية مطالب الحياة الفانية غبناً ومن اجل ذلك بعث الله الينا الانبياء والحكماء يخبروننا عن السبل التي نسلكها في تضحية حياتنا وانما كانت كلماتهم ارشاداً وتفسيراً لمطالب الحياة الخالدة

حكي ان جورج الثالث ملك الانكليز سأل جمس وات المخترع الشهير عما يزاول قال المخترع اني ازاول شيئاً تحبه الملوك قال الملك وما ذاك قال القوة . . . وليست القوة شيئاً يحتكره الملوك او المخترعون فانه ينبغي لكل انسان ان يكون في تطلبه القوة ملكا صغيراً او مخترعاً صغيراً فللكاتب من قلمه شارة من شارات الملك وللصانع فى آلات عمله شارات من شاراته وهو لا يكون كذلك الا اذا صدقت سريرته واحس عظم الحياة . نحن لا نحس عظم الحياة الا في دقائق قليلة من عمرنا وربما لا يحسه احدنا طول عمره مع اننا في حاجة الى ان نحس عظم الحياة في كل دقيقة من دقائق عمرنا على ان ذلك مستحيل لان الاحساس بعظم الحياة حمل ثقيل لا يقدر على حمله الا

قليل من الناس في قليل من ساعات عمرهم والعظيم من حمل ذلك الحمل حتى يهلكه فينبغي للمرء ان يجعل نفسه في منزلة ذلك الثور الذي يقول العامة انه يحمل الدنيا على رأسه كما تحمل فتاة الريف جرتها وهذا ما عنيت بانفاق المرء من حياته وتضحيتها في سبيل تحقيق مطالب الروح الخالدة وهو مظهر من مظاهرها يشرف بتحقيق مطالبها ولكن اكثر الناس يفر من حمل ذلك الحمل أي الاحساس بعظم الحياة . فبعضهم يجد في الخمر وسيلة تنجيه منه وبعضهم يجد في اتباع العادات واسلام نفسه الى تيارها نشوة تنجيه منه وبعضهم يجد في حزم التاجر او الموظف ذلك الحزم الذي كله ضئالة نفس واسفاف خلاصاً له من ذلك الاحساس . يهرب الناس من رؤية الشقاء كما يهرب القاتل من خيال قتيله وكما ان القاتل يرى في صورة المقتول عنوان جريته كذلك المرء يرى في مناظر الشقاء اتهاماً له ومبيناً عن تقصيره في اداء فرائض الحياة فان مناظر الشقاء تهيج في المرء احساسه بعظم الحياة وهو لا يريد ان يعالج ذلك الاحساس فيجتهد في ان ينيمه بأن يفر من مناظر الشقاء ..... يرى المرء شيخاً قد أكل الشقاء نضارة وجهه وشرب ماءه ثيابه قذرة وريحه خبيثة فيفر منه لانه يعبد الجمال وهذا منظر من مناظر القبح وكان ينبغي ان تغريه عبادته الجمال بمحاربة الشقاء لان الشقاء عدو الجمال .

خليق بالمرء ان يجتهد في ان يملأ روحه احساساً بعظم الحياة وان يملأ عمره من ذلك الاحساس ان منظر الغافل عن عظم الحياة منظر يبعث البكاء واليأس من صلاح الناس .

كل انسان له ميل الى العظمة ورغبة في التماسها وهذا سبب ميله الى تحقيق

مطالب الحياة الخالدة فانه اذا علم ان النماس العظمة فريضة عليه وجد ان حاجته فيما هو واجب عليه وانه مأمور بما هو حبيب لديه الا ان يغتر بمظاهر الحقارة وصغيرات الامور فيحسبها من مظاهر العظمة وانها من عظيمات الامور فالانسان لا يرغب في حقيرات الامور الا اذا حسبها من جليلاتها او انتفى لديه كل جليل

اساس الفرائض

اذا قرأت سيرة الانبياء رأيت ان اول وعظهم كان حضاً على التوحيد والتخلص من عبادة الاوثان وقد يحسب القاريء ان ذلك التوحيد أجل من مواقعة الفضائل التي هي اساس المعاش في هذه الحياة ولكن النبي قد زجر الناس عن عبادة الاوثان لان عبادتها من عبادة صغيرات الامور وحقيراتها فهي من اجل ذلك تقتل الفضائل التي هي اساس المعاش فعبادة الاوثان مظهر من مظاهر اهتمام المرء بحقيرات الامور فاذا نظرت في تاريخ الزمن القديم في اول الحضارة رأيت ان عبادة الاوثان وعبادة العادات وعبادة الملوك أصلها واحد لان سيد القبيلة كان حاكمها وحاميها فاذا مات صار ربها ومعبودها وكانت الاوثان رموزاً يرمز بها اليه وأصل العادات هو ذلك الاجلال وذلك الخشوع الذي يغمر قلب المرء عند رؤية سيد قبيلة وتلك العبادة التي تحني رأسه لاله قبيلته ولما سلك الناس مسالك التفكير صارت الاصنام والعادات حلية وزينة بعد ان كانت رموز العبادة ولا نزال بيننا من يحسب العادات من تعاليم الدين وأوامره ومن ينزلها

وهذه بقية من بقايا الوثنية ولكن لا غرو فقد قال أمرسون «ان الشيء يكون في اوله حاجة من حاجات الضرورة ثم يعود زينة وحلية» ان آفتنا هي اننا قد ننسى ان تلك العادات حلية وزينة لا حاجة من حاجات المعاش فيجوز ان نتحلى بها ولكن ينبغي ان لا نعبدها

ولقد كنت اعجب من المصلحين في زجر الناس عن عبادة الاولياء حتى عرفت ان نهي الناس عن عبادة الاولياء نهي لهم عن عبادة الاوثان ونهي عن عبادة العادات ونهي عن عبادة الملوك ونهي عن عبادة صغيرات الامور وترغيب في جليلاتها واذا نظرت في سيرة فولتير الحكيم الفرنسي رأيت ان الحاحه في زجر الناس عن عبادة القسس والاولياء قد كان زجراً لهم عن عبادة الحكام

فرض على النبي ان يزجر قومه عن حقيرات الامور وهذا اشرف الزجر واحسن الوعظ لان الذي يزجر الناس عن السرقة او الغدر أو كفران النعمة وجحد المعروف انما ينهاهم عن نتائج عبادة الحقير من مطالب الحياة الحقيرة وقد يظن المرء ان اهتمام الناس بالحقير يسليهم عن افتقاد الجليل ولكن لا يغريهم بالرذائل ولو بحث المفكر في اعماق النفس وعوامل الخير والشر واسباب الافعال لرأى ان اهتمام المرء بالصغير دافعه الى الرذائل وكأن الناس يحسبون ان الاهتمام بالصغير شيء حقير فينبغي للواعظ أو الناقد ان لا يضيع وقته في زجر الناس عنه وهم مخطئون في زعمهم لان فناء الحياة في صغيرات الامور ينأى بالمرء عن عظيماتها وينيم ضميره ويلهيه عن مناجزة الشر

ان الناس يخشون ان يبحثوا علاقة القوة بالحقوق والفروض فانك تسمع احد الناس يقول ان لي حقاً ان افعل كذا ولكنه لا يتساءل كيف عرف ان له ذلك الحق ومن اين اتاه ثم تسمع اخر يقول ليس لك حق ان تمنعني من عمل كذا فلا يخطر ببالك ان تقول له من اين عرفت ذلك وكيف حكمت ان ليس لي حق ولا عجب اذا كان المشركون قد زعموا ان ليس للنبي ان يزجرهم عن حقيرات الامور وان يغريهم بجليلاتها فالانسان له من الحقوق اكثر مما يدري وعليه من الفروض اكثر مما ينشط له ولكن من الصعب التماس المفكر تعيين حقوق المرء وفروضه على ان تركها غير معينة قد يكون فرصة ينتهزها صاحب الدهاء فيعينها كيف شاء فان الافعال كالعجين في يد صاحب الدهاء اذا شاء جعلها حقوقاً واذا شاء جعلها فروضاً كذلك العجين تشكله اليد كما تشاء ترى ان الاسلام قد جعل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضاً على الانسان فاذا سألت عن سبب ذلك علمت ان الذى جعل ذلك الامر والنهي فرضاً هو ان الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر اعرف بجليلات الامور من المأمور بالمعروف المنهي عن المنكر أى انه اعرف بوسائل القوة فانه اذا لم يكن اعرف بها لم يكن اعرف بجليلات الامور واذا لم يكن اعرف بجليلات الامور لم يكن ذلك الامر والنهي فرضاً عليه فالقوة هى اصل ذلك الفرض الذى فرض عليه وذلك الحق الذى له لان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض وهو ايضاً حق

اذا رأيت مجنوناً هارباً من مستشفى المجاذيب ثم تبعته فرايته قد وقف على نار ورأيته يريد ان يأكل الجمر يحسبه تمراً أترى من العدل ان تتركه زاعماً

ان ليس لك حق ان تمنعه عن اكل النار

واذا اردت ان تمنعه عن اكلها فقال لك ان ليس لك ان تمنعه أتزعم ان من العدل ان تتركه يفعل ما يشاء اذا كنت تزعم ذلك فانت مخطيء وان تركك اياه يأكل النار جريمة كبيرة فالعقل مظهر من مظاهر القوة والقوة هي التي منحتك حقاً وجعلت منعك اياه من اكل النار فرضاً عليك .

لعل القاريء يتفهم معنى القوة ويتخلص من ذلك الفزع الذي يتملك الناس عند ذكرها فان العقل والفضيلة والعواطف والعدل كلها مظاهر من مظاهر القوة فالحقوق والفروض نتائج من نتائج القوة ولا اعني ان القوة تبيح لك الظلم وتجعله حقاً من حقوقك وانما اعني ان مقدرتك على عمل الخير تجعل عمله حقاً من حقوقك فتعمله بالرغم ممن ينكر عليك ذلك الحق فتمنع ذلك المجنون من اكل النار وتمنع الطفل من ان يرمي نفسه في البئر حاسباً انه باب الجنة فاذا زعم ذلك الطفل ان ليس لك ان تمنعه عن ولوج باب الجنة بان يرمي نفسه في البئر فاصفعه صفعة تدمع لها عينه اذا كنت لا تقدر ان تمنعه عن البئر الا بالصفع ثم خذه واذهب به الى امه . اذا سألت ما الذي جعل للقوي من الامم حقاً في ارشاد الضعيف منها قلت هو الذي جعل للعاقل حقاً في ان يمنع المجنون من اكل النار او ان يمنع الطفل من ان يرمي نفسه في البئر أي اقتدار القوي من الامم على ارشاد الضعيف منها وعرفانه وسائل القوة

ولكني لا انكر ان ذلك العاقل الذي منع المجنون من اكل النار ربما

فعل ذلك دهاء فقد يكون ذلك المجنون ذا مال وعقار وقد يكون اشفاق هذا المشفق عليه خدعة يريد ان يغر بها الرائين فيولونه امره فيضع يده في ماله ويتحكم فيه وينتفع به ولكن أتحسب ان فعل ذلك الماكر يبيح للشارع ان يسن شريعة يقول فيها كل من منع مجنوناً من اكل النار عوقب بكذا من قانون العقوبات لانه يعد محتالاً اليس هذا من السخف والسفه

وانما ضربت هذا المثل لاقول ان ضعف الامم مثل جنون الافراد داء يبيح للقوى منها ان يرشد الضعيف منها ولا يزري بهذه الاباحة ان بعض اشفاق القوي على الضعيف قد يكون خدعة ماكر سببها رغبة القوي في الانتفاع بمال الضعيف لانه لو كان منع القوي الضعيف عما فيه ضره حراماً لجاز للشارع أن يحرم على الناس منع المجنون من اكل النار

والذي جعلني اظهر ان للقوي ان يرشد الضعيف الى وسائل القوة اعتقادي ان انكار الضعيف حق القوى في ذلك يلهيه عن التماس القوة وتطلب اسبابها بان يمد له حبال الامل فيأمل ان يقنع القوى ان ليس له حق في ارشاده والتحكم في امره واذا نظرت في التاريخ رأيت ما يؤيد اعتقادي هذا رأيت أمماً ضعيفة تقضي عمرها في انكار الحكم في امرها على القوى وتصرف أيامها في الاحتجاج عليه وكان ينبغي لها ان تصرف تلك الايام وذلك العمر في التماس القوة والتهيء لها

ولا يفزع من ذلك الحق الذى تسنه القوة للقوى أى حق تحكمه في امر الضعيف وارشاده الى ما فيه خيره الا من كان ضئيل الهمة فان جزعه من ذلك الحق دليل على انه لا يريد ان يكلف نفسه عناء تطلب القوة ومن

كان كذلك حكم الله عليه بالفناء

ان الامة التي تعيش جازعة من الناس القوة كما يجزع الطفل من الناس حاجته في غرفة مظلمة هي تلك الامة التي يقول فيها شكسبير « أمة تخاف ان تعرف نفسها »

فكفى بذلك الحق الذى قد يسيء القوى استعماله واعظاً وزاجراً عن العجز وشاحذاً للعزم وهادياً الى منازل القوة .

هيبة الحياة وهيبة الموت .

ان في الناس من يهاب الحياة اكثر من هيبته الموت وفيهم من يهاب الموت اكثر من هيبته الحياة وصحيح النفس من كان بين هيبة الحياة وهيبة الموت موازنة في نفسه فاذا رجحت هيبة الموت دل ذلك الرجوح على سقم في نفسه واذا رجحت هيبة الحياة دل ذلك الرجوح على سقم في النفس ايضاً ولكنه في الحالة الاولى عبد ذليل وفي الحالة الثانية امرؤ طائش السهم طائش الامل وهو في الحالتين سقيم النفس . اننا اذا أغرينا الناس بان لا يهابوا الحياة خفنا ان يغريهم ذلك الاغراء بان يغالوا في حب الحياة حتى يجبنوا وحتى يهابوا الموت فنكون قد أغريناهم بالخنوع للذل والظلم واذا نحن أغريناهم بان لا يهابوا الموت خفنا ان يدفعهم ذلك الى كره الحياة والرغبة في التخلص منها فخليق بنا ان نحثهم على ان يجعلوا بين الرهبتين موازنة كي لا ترجح احداهما ولكن الانسان لا يملك صحة نفسه وسقمها فان وراء رغبته في صحة نفسه عوامل لا يملك لها دفعا مثل الوراثة والتربية والبيئة فاذا

تحالفت هذه الاسباب على إسقام نفسه بان تجعله جباناً امام الحياة او جباناً امام الموت كان ضحية لها ولا تغنيه نصيحة الناصحين شيئاً

ان سقم النفس يؤثر في العقل بان يخص المرء بالنظر الى جانب من جوانب الحق فيغيب عنه باقي جوانبه فيجيء رأيه صحيحاً سقيماً فهو صحيح لانه نظر الى جانب من الحق وهو سقيم لانه قد غاب عنه جوانب كثيرة ان تعلق الذليل بالحياة سقم في نفسه وكره المنتحر للحياة سقم في النفس ايضاً ولكننا لا نسمي الجبن او التذلل جنونا فلماذا نسمي الانتحار جنونا. الجبن سقم في النفس وكذلك الانتحار ولكن اذا سئلت ايهما أخف شراً قلت الانتحار فان شر الانتحار أقل من شر خنوع الذليل وتعلقه بالحياة فاذا كان في الانتحار ضعة ففي تعلق الذليل بالحياة ضعة اكبر شراً وأوسع ضرراً

فينبغي لمن يكتب في مضار الانتحار الذي ينهي قراءه عن ان يجعلوا هيبتهم الحياة أرجح من هيبتهم الموت وان ينهاهم عن ان يجعلوا هيبتهم الموت أرجح من هيبتهم الحياة. ان اكثر الناس يحبون الحياة لانهم يهابون الموت ولا فخر لهم في ذلك وانما الفخر لمن يحب الحياة وهو لا يهاب الموت. أروني رجلا يحب الحياة ولا يجبن امام الموت أريكم الف رجل يحبون الحياة لانهم يجبنون عند ذكر الموت

انني لست من الجازعين الذين ترتعد فرائصهم عند ذكر خبر انتحار لاني اعلم ان حياة الفرد شيء ضئيل اذا قيس بحياة النوع وليست حياة النوع رهينة بحياة المنتحرين فان الذي ينتحر ينتحر لانه غير صالح للحياة كما

انه لا يسقط من الغصن غير الثمر الذي فسد . فلا تحسب ان سقوط التلميذ في الامتحان هو الذي يدفعه الى الانتحار ولا تحسب ان صحيح النفس عابد القوة يأتي الانتحار ولكن الذي ينتحر ينتحر لانه سقيم النفس ولسقم النفس اسباب منها السوداء او اليأس الطبيعي وبعض الناس يرث نصيباً وافراً منها ،

على ان في كل نفس شيئاً منها قد تهيجه التربية او البيئة . انك اذا جئت بجنود السماء والارض وأردت ان تعين امرأ على سقم نفسه وان تنجيه منه لم تفلح وانما مثلك مثل من يأتي بثمرة عفنة يريد ان يذهب عنها عفونتها ويعيدها صحيحة سليمة . انه لا يجزع من خبر انتحار منتحر الا من جهل عظم الانسان وبقدر جهلك عظم حياة النوع يكون اغترارك بحياة الفرد . اذا أردت ايها القاريء ان لا تجزع من كثرة سماع اخبار المنتحرين فارفع رأسك الى السماء في ليلة زهراء وانظر الى النجوم وعوالمها وضئالة عالمنا فان في تلك النظرة برأ من الاغترار بحياة الفرد . لست ادعي اني أصح الناس نفساً استغفر الله ان في نفسي لسقما كثيرا واني لادعو الله ان يزيدني من صحة النفس ولكني لو كنت أسقم الناس نفساً لما منعني ذلك من ان اقول ان سبب الانتحار سقم النفس لقد جعلني ألح على القارىء ان لا يغتر بحياة الفرد عرفاني ان اغترار الامم بحياة الفرد سبب من اسباب سقوطها والمصريون أحوج الناس الى اجلال حياة النوع اكثر من اجلال حياة الفرد ان الذي يجزع من سماع خبر انتحار يسيء الى نفسه والى امته بذلك الجزع لانه ليس من عبادة القوة . مثل الناس في هذه الحياة مثل جيش

محارب الموت أمامه اذا سقط من صفوف الجند رجل سدوا ثغرة في صفوفهم فتحها سقوطه فتلتئم الصفوف وتسير فوق جثته الى الموت فهم لا يجزعون لسقوطه فان جزعهم يوقظ الحيرة والرعب في قلوبهم

وهذه حالنا في الحياة ألسنا نسعى الى الموت على قبور الماضين ألسنا نسير الى الموت على قبور الهالكين نحن نسير على أديم الارض وهو من اجسام الموتى كما قال ابو العلاء فهل اشعل ذلك جزعاً في قلوبنا . وبعد فاني احاسب اديباً في قوله ان الانتحار دناءة ونذالة ان الانتحار جبن امام الحياة وسقم في النفس وجهل لفروض الحياة وضعف في العزيمة وجهل لجلالة الحياة اما الدناءة والنذالة فهما كلمتان تصدقان في اكثر المتعلقين بالحياة ولا تصدقان في كل المنتحرين فان اكثر الناس يتعلقون بالحياة جزعاً من الموت وانما شرف الاحياء في ان يكون تعلقهم بالحياة سببه احساسهم ان ذلك التعلق فرض فرضه عليهم عظم النفس وان يكون سبب رغبتهم في الحياة احساسهم بعظم الحياة وجلالتها وعرفانهم فروضها

وليس كل من ينتحر ينتحر جزعاً من ثقل الحياة فان من المنتحرين من ينتحر احتقاراً للحياة واحتقاره للحياة سببه جهله جلالة النفس فيها وقد لا يكون هذا المحتقر للحياة هائباً لها

ان طموح المرء الى منازل القوة والكمال لا عيب فيه وان فضيلة الاحياء في ذلك الطموح ولكن شر الطموح ما يغري المرء باحتقار الحياة ان ادب الانسان أو علمه أو كرم خلقه لا يغني عنه شيئاً اذا جهل فروض الحياة أو لم يكن له من الصبر والعزم ما يعينه على اداء تلك الفروض

عبادة القوة

بعض المفكرين ينهانا عن عبادة القوة وانما يريد ان يردنا عن عبادة القوة عبادة مكذوبة عبادة العامة عبادة الجبناء ولكنه لا يريد ان يردنا عن عبادتها عبادة صادقة. فليست عبادة القوة ان تهابها في غيرك ولكنها تطلبك أسبابها فانما يعبد المرء معبوده حق عبادته بالتقرب منه . انك لا تعبد الحق الا برغبتك في الحق لا برهبتك منه وانت تعبد الصدق بان تزاول الصدق لا بان تحبه في غيرك وتتجنبه . أرأيت احداً عبد الصدق بالكذب فكيف يعبد أحد القوة بالضعف والجبن ؟ كيف يجل امرء القوة في غيره ويتجنب اسبابها ثم يزعم انه عبدها ؟ هل عبد الفضيلة عابد الا بمزاولة الفضيلة ؟

ترى ان هذا الناهي لم يرد ان ينهانا عن عبادة القوة فاننا اذا لم نعبد القوة فاي شيء نعبد ؟ أنعبد المرض والضعف والموت واليأس والقبح ام نعبد القوة والحياة والامل والجمال ؟ أليست القوة حياة واملا وجمالا أي امة صار لها شأن قبل ان تعبد القوة ؟ ليس الذليل مستعبداً لانه عبد القوة في القوي ولكنه مستعبد لانه عبد الخوف والعجز واليأس فلو انه عبد القوة في القوي لرأى ان من عبادة القوة ان يقرع القوة بالقوة فليست العبادة ان يخاف المرء معبوده او ان يجبن امامه كما تفعل العامة ولكن العبادة في العمل والامل والتفكير . وكيف يكون المرء عاملا كبيراً او مفكراً كبيراً الا اذا عبد القوة ان عبادتك القوة في غيرك تدلك علي مكان القوة منه وتغريك بالتماسها . فان عبادتك القوة في الريح او الصاعقة او الشلال او

الكبرياء او الجسم او الرأي او الخلق دليل على انك تتوق الى القوة وانك عرفت مكانك في الحياة — دليل على انك فهمت معنى الحياة . أليست هذه العقيدة هي العقيدة الوحيدة التي تنهض بالامم ؟ ان الانسان لا يقدر ان يحب الحياة الا اذا عبد القوة وهو لا يعرف عظمها وجلالها الا اذا أحبها. أفهم الذليل ان القوة اعظم من الحياة فان ذلك يعلمه عظم الحياة ويعلمه كيف يحبها حباً صادقاً فان عظم الحياة في ان تكون القوة أحب الى المرء منها وعظم الحياة في ان تكون وسيلة الى القوة في الرأي والجسم والخلق. فينبغي للمرء ان يحب القوة اكثر من حبه وسائلها فالمال والجاه والادب والعلم هي وسائل تبلغ بالمرء الى القوة والقوى وسائل تبلغ بالمرء الى فرائض الحياة فاذا استعبدته تلك الوسائل وحسب انها غايته التي يسعى اليها كانت مطية له الى العجز فليست عبادة القوة في ان تلهيك وسائلها عنها ولكن عبادة القوة في ان تستعبد تلك الوسائل . وليست عبادة القوة مغرية لك بالرضا عن طغيان من يسيء استعمالها فانك اذا كنت تعبد القوة من اجل انها حياة الكون ورقيه أغرتك تلك العبادة الصادقة ان تقرع القوة بالقوة لاصلاح ما أفسده طغيان ذلك الباغي. وانما الطغيان مبين عن ضعف في خلق ذلك الباغي وضعف في رأيه تصلحه قوة في خلقك ورأيك اذا كنت قوي الخلق والرأي

من اجل ذلك كان في القوة دواء ما تحدث من الشر وذلك الشر انما أحدثته القوة كي تمهد به سبيل الخير فهي مثل الباني الذي يهدم بيتاً ضعيف الاركان كي يبني مكانه بيتاً امتن اركانا. اقرأ التاريخ تر ان اليونان والرومان

والعرب لم تنهض الا بعبادة القوة في الجسم والرأي والخلق حتى اذا غفلت عن عبادة القوة وألهتها عبادة المظاهر الكاذبة عن عظم الحياة وجلالة النفس جاءت بعدها امم أحدث منها عهداً بعبادة القوة بنت حضارتها على آثار تلك الحضارة الماضية. هكذا تحيا الامم وهكذا تموت وانما حياة الكون ورقيه في ان يحيا القوي وان يموت الضعيف. فخليق بالمصريين ان يعبدوا القوة وان يتلمسوها في انفسهم وان يجلوها في غيرهم — خليق بهم ان يتلمسوها في الكتب وفي الزهر وفي الكهرباء وفي الريح وفي جسم الملاطم او المروض وفي الحضارات الماضية وان يجلوها في حسن اخلاق عيسى وفي عزيمة محمد عليهما الصلاة والسلام وفي طموح نابوليون وفي طهارة البريء وفي اقدام الجاني

لقد زادنا غفلة عن عبادة القوة ذلك الرأي السقيم الذي اذاعه مشايخنا في القرنين الماضيين وهو زعمهم انه خير للمرء ان يكون ضعيفاً مظلوماً من ان يكون قوياً ظالماً من يدري لعل ذلك القوي الظالم أقرب الى الله من ذلك الضعيف المظلوم. أليس جبن ذلك الذليل هو الذي خلق ظلم هذا القوي نحن نسب نيرون الظالم ونذم ظلمه ولا نذكر لؤم نفس من تركه يعيث ظلما. انما زاد في غفلتنا عن عبادة القوة قول مشايخنا «المؤمن مصاب» وغير ذلك من الكلمات التي أذلت رقاب الناس للطغاة من امراء الدولة الايوبية ودولة المماليك والترك فينبغي لكل امرىء ان يكتب على قلبه هذه الكلمات « القوة أعظم من الحياة » فانه اذا فعل ذلك كانت امته امة قوية في الجسم والعقل والخلق

العبادة هي تربية العزيمة والحياة فرصة ينبغي للمرء ان ينتهزها في تربية عزيمته والتماس القوة بها كي يعبد الله عبادة صادقة

حكي ان زركسيس ملك الفرس كان قد بنى جسراً على البسفور كي يمشي عليه جنده الى اوربا لمحاربة اليونان فهدمه البحر

فاستشاط الملك غيظاً وأمر الجند ان يضربوا البحر بالسياط عقاباً له ففعلوا . اني أرى ان هذا العقاب لم يكن من بوادر الجنون على ان جنون القوة خير من جنون الجبن . يعجبني من المرء ان يستطيل على قوى الطبيعة بالعزة والاباء . ان في ضرب زركسيس البحر بالسياط استطالة على قوى الطبيعة ورغبة في تذليلها ونوعا من الشعر وعنوانا للحياة — متى يستطيل المصريون على قوى الطبيعة بالعزة والاباء والاقدام ؟ نحن نيأس من المجد لاننا نزعم ان ليس في نفوسنا من القوة ما يعيننا عليه ويدنيه منا ان القوة كامنة في نفوسنا في ناحية من نواحيها فينبغي لنا ان ننشدها فيها وان نوقظ تلك القوى النائمة بان نقلق كل القلق فان القلق قوة تفك قوى النفس من اسرها وتبعثها من نومها ان القلق هو الذي رقى باوربا ذلك الرقي . قلق الاوربيون حتى فكوا ارواحهم واذهانهم من أغلال العجز فنالوا حرية العقيدة والايمان والتفكير والعمل

اني ارى شيخاً قد أكب على الارض يتمتم ويبصق ويسعل وقد قطع السعال صدره ويداه ترتجفان من الضعف وقلبه يرتجف من الرعب وكل جبان امام الله جبان امام الحياة أرى هذا الشيخ ثم أرى فلاحا قد فتل الجد اعصابه يضرب بفأسه الارض ويتغنى بما دار بينه وبين حبيبته في

خلواته فاسائل نفسي ايهما احب الى الله رجل يحيي الارض فتحيا بحياتها الناس ام رجل لا يرى العبادة الا في ان يعذب روحه وجسمه ؟ رجل يرى العبادة في العمل والقوة ام رجل يراها في الضعف والجبن والسعال والبصاق والانكباب على التراب يهيله فوق رأسه ؟ رجل يرى العبادة في الثقة بالله ام رجل يراها في ان يرى ربه في منزلة ملك مستبد وان يجعل نفسه في مكان عبد ذليل ؟ الا ان بين هذا الشيخ الضعيف وبين العربي من صحابة النبي عليه السلام فرقاً واسعاً فقد كان العربي في صدر الاسلام يرى ان روح الدين في عبادة القوة أليست عبادة القوة هي التي نصرته في فتوحه وجعلته مالكا للحياة بدل ان يكون عبدها ومالكا للقضاء بدل ان يكون عبده .

من الاكاذيب الشائعة قولهم لا تطلب عمل شيء تقصر عنه همتك . هذه الكلمة من اسباب ضعفنا كأنهم يريدون ان يقولوا ان النجاح الضئيل خير من الفشل الجليل كأنهم يريدون ان يقولوا ان همة المرء شيء يوزن بميزان البائع . يقولون ان التماس السهل والقنوع به اجلب للسكينة والامن فهم يزعمون ان السكينة ينبغي ان تكون اجل شيء عند المرء وهذه ضلالة في الافهام فان المرء اذا عرف عظم نفسه وجلالها رأى ان السكينة شيء ضئيل في جانب عظم النفس وما يرضاه عظمها من القلق والطموح . ليست حياة المرء غاية ولكنها واسطة لان يكمل المرء نفسه بالتماس القوة ولأن يستطيل على الممتنع من امور الحياة فليس جزاؤه في النجاح ولكن جزاءه في الاجتهاد ولا رأي لمن يلوم الناس في طلب الكمال . رأيت مرة امرأة تعلم طفلها المشي رأيتها اوقفته ثم ابتعدت عنه قليلاً والاحت له بقطعة من الحلوى فاخذ

الطفل يخطو خطوة ثم خطوة حتى اذا قرب من امه ابتعدت قليلا هكذا جعلت تليح له بقطعة الحلوى وهو يخطو في طلبها حتى علمته المشي فلما اعطته قطعة الحلوى وتركته لتنظر في امر لها جاء اخ له كبير فاخذ منه قطعة الحلوى وتركه يعوي كالكلب اذا حلت بينه وبين قطعة من العظم ولكن هذا الطفل ربح فهو قد خسر الحلوى ولكنه تعلم المشي هذا الطفل مثل الانسان في الحياة يجهد نفسه كي يبلغ امله حتى اذا كاد يبلغه اتى دونه حائل فهو اذا لم يبلغ امله فقد علمه السعي كيف يعيش

كلما خطا المرء خطوة في سبيل التهذيب خلص من رق الصغائر ولا يزال كذلك حتى يعرف ان عظم حياته في عرفانه مكانه في الوجود وانه خلق ليحفر للقضاء مجراه وليكون جزأ من القضاء جزأ من القوة جزأ من الحياة وان كثرة اهتمامه بالاشياء الحقيرة نزول منه بنفسه عن مرتبتها وجهل لها فاذا بلغ المرء منزلة يرى ان كل نوع من انواع قوى الوجود كائن في اعماق نفسه مثل قوة الجمال والحياة والاعتقاد والانكار وان الطبيعة لباس لتلك القوى التي مقرها النفس وتفسير لها وانه ينبغي له ان لا يهتم باللباس اكثر من اهتمامه بالقوة التي تلبسه .... اذا بلغ المرء هذه المنزلة كشف له عن سر الحياة.

ليس الدين غاية ولكنه واسطة يعرف بها المرء عظم النفس وعظم الحياة بان يعبد القوة كي يؤدي فرائض الحياة ويحقق مطالب الحياة الخالدة فينبغي للمرء ان لا يدين بدين يشغله عن معرفة عظم الحياة.

ان انظمة الحياة مثل نظام الحكومة ونظام الزواج ونظام الاسرة

ونظام المودة ونظام الحب كلها وسائل اذا صلحت بلغت بالمرء منزلة يطل منها على معاني الحياة ولكن قليلا من الناس لا تزدهيه هذه الوسائل وان اكثر الناس يحسبها غايات فيغتر بها فمن أبى ان يغتر بتلك الانظمة كان مفكراً عاقلا الا ان يكون قد جهل عظم هذه الانظمة الذي تستفيده من اجل انها وسائل الى غاية هي عبادة القوة في الخلق والجسم والرأي فانه اذا جهل انها وسائل ترجيه الى معرفة عظم الحياة وأراد ان يخلص من رقها كان مجرما كبيراً. فالعبقري العاقل يشبه المجرم من حيث ان كليهما يعرف ان انظمة الحياة وسائل لا غايات ولكن العبقري يجل تلك الانظمة ويسعى في توطيدها ما دامت وسائل يلتمس بها صلاح الكون فاذا فسدت كان اول من يسعى في هدمها ولكن المجرم يأبى ان يكون عبداً لها لانه قوة عمياء من قوى الهدم

الحق الذي لم يشبه من شوائب الشخصية شائب لا نفع له ولا وجود لان مزية المعنى في ان يلمس فلا ينفع وان يكون بينه وبين الارادة صلة يحرك بها المرء ويحكمه بها والحق المطلق من قيود الشخصية اذا قاربته بعد عنك فهو كالسراب خادع للذهن مهلك للنفس والتماس المرء اياه يكسبه ضعفا في همته ويقعده عن العمل وينسيه جلالة الحياة ومعنى الفرائض فيكون مثل من يدمن النظر الى طرف انفه فيخفى عنه كل شيء

يوجد نوعان مضران من انواع التفكير نوع يختصر الابد في نقطة وهذا تفكير ذوي الاذهان المغلقة الضيقة من الاغبياء ونوع يمد النقطة حتى يجعلها في الطول كالابد وهذا تفكير اهل التردد والتفريط من الاذكياء فنفع النوع

الثاني من التفكير في ان يفك عن المرء قيود العادة وان يوقظه من نشوة المظاهر وضرره في ان يجعل بين الذهن والارادة سدا والنوع الاول أقرب الى العمل من اجل انه يجعل الحق محدودا والعمل من طبعه التحديد ولكن النوع الثاني قد يدفع المرء الى العمل ايضاً من اجل انه يفك المرء من قيود العادة ولكن طموح المرء الى ان يحد الابد بفكره داء يجعل حاجته غير محدودة ورغبته غير مقيدة بقيود العزيمة وذلك يسوق الى اليأس من الحياة فاذا أحس المرء الحياة احساساً صادقاً عرف فرائضها واذا عرف فرائض الحياة رأى ان يقيد حاجته بقيود العزيمة الممكنة

حكم القوة

كثير من الناس يحلمون في اثناء تفكيرهم ثم يزعمون انهم يفكرون ويسلك في عقد هؤلاء الذين يتساءلون عن انتهاء حكم القوة. لو أفاق هؤلاء من حلم التفكير لرأوا ان هذا التساؤل ليس له معنى. ان كل شيء في الوجود لباس للقوة ومظهر من مظاهرها والقوة هي روح الوجود. اني لست اشفق على القراء من شيء اشفاقي عليهم من كلمات هؤلاء الجازعين من حكم القوة وانما تساؤل هؤلاء عن انتهاء حكم القوة مثل تساؤل من يقول متى يلد الحمار أرنباً. بل هذا المسؤل عنه اقرب الى الامكان من انتهاء حكم القوة. اذا شاء هؤلاء الجازعون سمحنا لهم ان يتساءلوا متى يلد الحمار ارنباً وأما قولهم متى ينتهي حكم القوة فهو قول أعظم فكاهة وأقل معنى. ان كثيراً من الناس لا يعرفون معنى القوة تمام العرفان فانهم لو عرفوه تمام العرفان لعجبوا

من تساؤل من يسأل عن انتهاء حكم القوة . كيف ينتهي حكم القوة اذا كان كل شيء في الوجود مظهراً من مظاهرها مثل الشمس والحيوان والنبات والهواء والخلق الحميد والمعنى السديد والجمال والامل اليست هذه مظاهر من مظاهر القوة

لعلهم يقولون انا نعني بهذا التساؤل قوة المادة وهذا الايضاح ليس باقل غرابة من ذلك الابهام لان القوة والمادة شيئان لا يفترقان حتى قال العلماء ان القوى صفات من صفات المادة . من الذي يقدر ان يفصل القوة والمادة فيقول هذه قوة ليس فيها مادة وهذه مادة ليس فيها قوة

أليس العدل ايضاً مظهراً من مظاهر القوة أليس العدل انتصار قوة من قوى الخير على قوة من قوى الشر كما ان الظلم انتصار قوة من قوى الشر على قوة من قوى الخير والحكم في الحالين للقوة

كأني بمن يتساءل عن انتهاء حكم القوة يعني بالقوه الظلم وهذا خلط عجيب واضطراب في التفكير وجهل لمعاني الكلمات . اذا حدثك محدث بقصة ظلم حدثت في عهد استبداد وقال لك ان هذا كان في ايام حكم القوة فقل له انت تخطيء في استعمال هذه الكلمة . فاننا لا نزال في ايام حكم القوة فالدهر هو ايام حكم القوة والابد هو ايام حكم القوة وانما اردت ان تقول ان هذه القصة حدثت في ايام الظلم واما مجاراتك اياه في استعمال القوة مكان الظلم فدليل على انك لا تكلف نفسك عناء التفكير . نحن لا نزال في ايام حكم القوة غير ان قوى الخير التي وراء الشريعة والنظام أغلب لقوى الشر التي وراء الظلم . فلماذا تعني بالقوة قوة الشر وانت قد ذكرت اللفظ مطهراً

من النعوت بريئاً من الاضافة كأنك تعني ان كلمة القوة لا تطلق الا على قوى الشر. اني رأيت العامة يفزعون عند ذكر القوة كأنها غول من اغوال العجائز او حيوان مفترس او مجرم شهير ولكن ينبغي للاديب ان لا يجاريهم في ذلك الفزع وخليق به ان يفهمهم ان العدل والشريعة والنظام مظاهر من مظاهر القوة

واما جزع الجازعين من انتصار القوي على الضعيف من الامم فهو جزع مثل جزع الطفل من رؤية الظلام. ان انتصار القوى على الضعيف هو سبب استئناف الرقي فان الضعيف اذا أحس ان القوى غالب له وعرف ان حياته في التعلق باسباب القوة وانه اذا لم يتعلق باسباب القوة مات ورأى امامه قوياً يريد ان يغلبه على امره بذل جهده في تطلب القوة وارتياد مظانها الا اذا كانت ارادته قد مرضت مرضاً عضالا فانه اذا كانت ارادته كذلك كان ضائعاً لا محالة ولا يقول ان ذلك ليس من العدل الا من جهل معنى العدل فالعدل هو انتصار قوة من قوى الخير على قوة من قوى الشر وانتصار الارادة المشلولة انتصار للموت والجهل والشر اليس الضعف هو رأس الشر

أليس احساس الشرقي بان حياته رهينة بالتماس القوة هو الذي جعل يوقظه. اليس عرفانه ان القوى غالب للضعيف هو الذي أزعجه من نومه. اليس خوفه من ان ينعدم في الغرب هو الذى بدأ ينفض عنه غبار القرون انا لا نقدر ان نتصور كوناً ليس القوي غالباً فيه للضعيف ولو فرضنا ان من الممكن ابطال سنة انتصار القوي على الضعيف وتعليقها عن

العمل كما يقول النحويون في هـذا الوجود الذى نعيش فيه لبدأ الوجود يفسد نظامه لان نظام الكون وانظمة المعاش سببها انتصار القوى في الجسم والخلق والرأي فلولا هذه السنة ما أيقظ العزائم موقظ . اليست هي التي نبهت المصريين الى مصالحهم المادية والادبية والاقتصادية

يقول بعض الناس ان الشريعة جعلت افراد الامة سواء وهذا قول نصفه حق ونصفه باطل فان الشريعة جعلت الناس في مرتبة واحدة اذا انتهكوا حرمة حرمها ولكن الناس ليسوا سواء في مساعيهم وفي معاملاتهم التي لا تخرج عن دائرة ما حلله القانون فمن كان منهم قوي الجسم والخلق والرأي غلبت مساعيه مساعي من هو أضعف منه جسما ورأيا وخلقا وانتصر عليه في تلك المعاملات . فالحكم للقوة سواء كانت قوة الشريعة في معاقبة من خرق سياجها او قوة اجسام الافراد او قوة خلقهم او قوة رأيهم في مساعيهم ومعاملاتهم او قوة الامم في فتوحها واستعمارها . لو كان أقل ما في التساؤل عن انتهاء حكم القوة انه لا معنى له لما أشفقنا على انفسنا منه ولكن هذا التساؤل يلهينا عن التماس القوة وانمائها في الخلق والجسم والرأي اتكالا على اقتراب عهد انتهاء حكم القوة . . . خليق بنا ان لا نصغى الى ما يلهينا عن عبادة القوة والتماس اسبابها وانـنا لاحوج الى ما يغرينا بعبادتها والتعلق بوسائلها

وسائل القضاء

المصريون يعوزهم شيئان عرفان معنى القدر فان الذي نهض بالعرب هو عرفانهم معناه والذي قعد بهم هو اساءة فهم معناه والشيء الاخر هو ان ينفضوا عن انفسهم غبار القرون الماضية ولكنهم لا يمكنهم عرفان معنى القدر ونفض غبار القرون الا اذا قلقوا ذلك القلق الذي يدفعهم الى تعرف سبيل الاصلاح والتماس القوة بالتفكير في الحياة ووسائلها

وكما ان الانتفاض يطير عن المرء غبار الارض كذلك القلق يطير عن الامم غبار القرون اي آثار العوامل من الحوادث الماضية

لا تحسب انك تعبد القوة بان تذم صاحب القوة او بان تستغيث وتلهث وتصخب وتصرخ وانما تعبد القوة بان تتعرف مصادرها فتسعى من طرق مختلفة فان صاحب الذراع المفتول لا تخونه الحوادث ولو سدت حوله ابواب الحيل والامة برجالها والرجال باجسامها وعقولها

نحن نرث الزمن والزمن يرثنا وانما الخلد ان يفيق المرء الى انه يحمل روح الحياة الخالدة بين جنبيه فهو من اجل ذلك معبد من معابدها وبيت من بيوتها وان الروح التي تحس فيه هي الروح الخالدة التي تحس في غيره ولولا صدق ذلك ما دفع الجماهير دافع من الجنسية او الوطنية ولا عرفوا للتضحية معنى ولا أحسوا لها حسيساً فانما فقهوها او أحسوا اغراءها لان النفوس ليست وحدات متباينة منفصلة ولو صح انها منفصلة ما كان هذا التضافر بين افراد الاقوام وكلما عظم احساس قوم بهذا الامر كثر ظهور

العظماء بينهم وكلما قل الاحساس به قل ظهورهم فانما احساسهم به هو الذي يغريهم باغفال ما ينشده الناس من مطالب المظهر الخاص من مظاهر الحياة العامة

لاعظام العظماء ما يغفل عنه الناس من مطالب الروح التي هم مظاهرها

لا حق لضعيف فلو كان الحق في كف العاجز لاصبح الحق باطلا مخذولا هذه سنة الله من كان عاجز النفس والرأي واليد كان صلاح الخلق في هزيمته وليس الظلم رأس الباطل بل رأسه العجز فان الذي يحيي الظلم خنوع العاجز فالظلم نتيجة من نتائج الذل ولو نظرت في التاريخ لعلمت ان ظلم الطاغية اذا انتفى قبل ان تتهيأ النفوس لمحوه نبت مكانه ظلم أشد وهو ظلم الفوضى

اذا رأيت اوراق الخريف تذبل على اغصانها ورأيت امة تفنى علمت ان كليهما عدل وحق وان كل من لا ينمو يفنى وكل ما لا يزيد ينقص وكل ما لا يتقدم يتأخر وانما فنيت الامم لان الدهر سلبها عرفان سبيل استرجاع حياتها وتجديدها

ليس في الامم او اللغات او الانظمة او العقائد شيء لا يعترضه الفناء وانما هذه وسائل من وسائل الحياة لا غايات

يقول قائل ان القوة ليست ابداً سائقة الى الفضيلة وهذا القول في الصميم من الحق ولكن القوة فيها دواء ما تحدث من الفساد بل ذلك الفساد من سلاسل الحوادث التي تقضي بها القوة امرها فالقوة هي التي سمت بالرومان الى منزلة علياء من منازل الملك والشوكة وكما احدثت القوة الحضارة ومستلزماتها والشرائع الرومانية الشهيرة التي عم نفعها احدثت تلك

الفتوح التي اكثرت الثروة والترف وما تبعه من الانهماك في الرذيلة والطغيان في الخلق الفاسد فاستلزمت هذه الحال ظهور المسيحية وروادعها من ترهب وتعبد فلما جهل الناس معنى العقائد وصار احدهم يرى ان من العقيدة ان يحرق اخاه في عهد الاضطهاد تناهت قوة النفوس الى الحرية والرغبة في الملاذ التي ظهرت في عهد احياء العلوم في اوروبا بعد ان كانت تغري المرء بان يضطهد نفسه ويحرمها اللذات فالقوة دواؤها في دائها والشر يمحوه الشر ان سعادة امة وشقاءها امر ضئيل اذا قيس بالسنة التي قضت بسعادة الامة او شقائها وكما ان الفرد وسيلة من وسائل القضاء كذلك الامة وسيلة لا غاية

هنيئاً للامة التي ترى في قوى الطبيعة مرآة حياتها فتعظها قوى الطبيعة فتعظها القوة التي في الغصن الذاوي تذويه والتي في الغصن المورق تكسوه قوى الفناء وقوى الحياة وليس الفناء الا مظهراً من مظاهر الحياة وسبيلا اليها

ولا ريب ان يقظة النفس واحساسها عظمها ليس مما يتهيأ لكل نفس ولا مما يستقيم في كل حال ولكن النفس ليست الحجرة الصغيرة تعرف ما تحويه فليس من الرأي ان تحكم على نفس بالقدرة او العجز اذ ان في كل نفس قدرة كثيرة وعجزاً كثيراً وصفات متباينة وشمائل غائرة غافلة

القوة ملأ الحياة والنجاح في تذليلها ورياضتها كما تروض المطية وهي كالحسناء لا تروضها الا بان تكون جريئاً عليها

لا يعبد احد القوة بأحسن من تعرف مكانه في نظام الوجود وما ينبغي

له ان يكون .

اذا نظرت في الوجود رأيت ان القوة اعظم من الفضيلة لا ريب في ان الفضيلة قوة ولكن الطبيعة لا تأنف من ان تجعل القوى غالباً للفاضل اذا كان في ذلك وسيلة من وسائل الرقي انظر في التاريخ ترَ ان صاحب الرذيلة قد يغلب صاحب الفضيلة اذا كانت قوى الاول اكبر من قوى الثاني هذا شيء قد يحزن الباحث ويدفعه الى اليأس ولكنه اذا جد في بحثه رأى ان ذلك معين على الامل وسائق اليه ان الطبيعة تخرج الخير من الشر وتخرج الشر من الخير وينبغي ان لا يجاريها احد من الناس بأن ينصر القوة على الفضيلة لان ما يحل للقضاء لا يحل للناس فالشيء يعد خيراً او شراً اذا نسب الى الانسان ولكنه اذا نسب الى القضاء لم يكن خيراً ولا شراً هذه سنة الله من خالفها بأن يجارى القضاء في فعل الشر خسر بفعله ما كان يربحه اذا لم يفعله فيخسر من ضميره وصحة عواطفه وطهارة خلقه وسكينة نفسه فهو وان كان رابحاً بفعل الشر من مال او جاه او منفعة فان الذي يخسره من سعادة اكثر من الذي يربحه من مظاهرها لان السعادة ليست دائماً في المال والجاه والمنفعة ولكنها في سلامة الضمير وصحة العواطف وسكينة النفس فاذا كان المال والجاه والمنفعة سائقة الى طهارة النفس وسكينتها كانت السعادة فيها ولكن من فعل الشر خسر طهارة النفس وسكينتها وسلامة الضمير وهدوءه

ان وقوع القضاء بما لو فعله الانسان عد في الشر ينبغي ان يكون دافعاً الى اليأس او الحزن او باعثاً الى مجاراة القضاء في موافقة الشر لان شريعة

القضاء غير شريعة الناس وليس كل حلال له حلالا لنا لان الانسان لا يقدر ان يخرج من الشر خيراً وانما الاضطهاد في الدين سببه انكار اعوان محكمة التفتيش هذه السنة الكبيرة (اي ان الانسان لا يقدر ان يخرج من الشر خيراً) فكان انكارهم اياها باعثاً الى مواقعة جرائم كثيرة من قتل وتعذيب والتخلق بالقسوة وغلظ الاحساس

جهل الجزويت هذه السنة فكان احدهم يكذب او يخون من ائتمنه او يتجسس على من اضافه ويسعى به عند المضطهدين ثم يزعم انه انما اتى الشر كي ينصر الفضيلة والخلق الحميد

القضاء اوله في الازل واخره في الابد فهو من اجل ذلك يأتي بالشر كي يدفع به الشر اما الانسان فعمره ايام قلائل فينبغي له ان يجعل قواه في جانب الخير لان بقاء الوجود في ذلك فاذا كان جانحاً الى الشر بأن تكون الوراثة والبيئة والتربية قد غرست في نفسه عوامل الشر كان فعله الشر جالباً له الشقاء ولا اريد ان اقول ان كل شقاء سببه فعل الشر ولكني اقول ان كل شر نتيجته خسران وان كان من نتائجه ربح ايضاً لا يجوز لاحد ان يقول ان العقاب الذي يجلبه فعل الشر على فاعله جزاء لفاعل الشر لان الجزاء لا يكون الا اذا كان المرء غير مقيد بقيود الوراثة والبيئة والتربية فإن هذه انصار القضاء والانسان عبد القضاء وليس الشقاء الذي يجلبه فعل الشر على فاعله جزاء او العقاب الذي تضعه الحكومة للجاني عقاباً وانما هو نتيجة طبيعية فلا يجوز لنا ان نسميه جزاء كما لا يصح ان نسمي ذبول الازهار او احتراق فتيلة المصباح او تحول النار الى رماد عقاباً لها ولكنه نتيجة طبيعية وكما ان

القدح اذا رميت به على صخر تكسر كذلك الانسان اذا أتى الشر خسر انه من الخطأ ان يزعم زاعم ان عقاب الحكومة للجاني ظلم له كما انه من الخطأ ان يزعم آخر ان تكسر القدح او ذبول الازهار او احتراق فتيلة المصباح ظلم لها فشقاء الانسان اذا كان قد اتى شرا ليس بظلم بل هو نتيجة طبيعية وكذلك شقاء الانسان اذا لم يأت شرا بان يكون ضعيف العزيمة او مهيج العواطف فكما ان البخار المحبوس اذا عظم كسر الاناء كذلك العواطف المهيجة القوية تحز في نفس صاحبها وتشقيه فلا يصح ان نقول ان صاحب العواطف المهيجة قد ظلمه القضاء كما لا يصح ان نقول ان الاناء الذي حبس فيه البخار مظلوم وانما الفرق بين ذلك الاناء وبين صاحب العواطف المهيجة ان الاول لا يتألم وان الثاني يتألم ولكن القضاء لا يعوقه تألم الانسان لان ألم الانسان شيء ضئيل في سبيل الحياة ولولا الالم ما ذيقت اللذات

اذا بلغ الانسان منزلة من العرفان يعرف فيها حقارة حياته الخاصة بأن يعرف مقدار جلالة الوجود رأى ان القضاء غير ظالم في حكمه ولو ان ذلك الرأي لا يذهب آلامه فقد يعينه على احتمالها ولا يعرف المرء مقدار جلال الوجود الا اذا عبد القوة في جميع مظاهرها فيعبد القوة في الجسم والخلق والارادة والفكر ان في نفس المرء عزمات نائمة اذا لقيت من الحوادث ما يثيرها غيرت مجرى القضاء وان نوم تلك العزمات سببه يقظة عوامل في النفس تسعى الى غير ما تسعى اليه تلك العزمات وهذه العوامل تعين مجرى القضاء ايضاً فالقضاء لا يقع الا بما تريده النفوس ولكن قوى المادة لها تأثير في النفوس فانها تجد قواها وتعين عواملها والنفوس قوى

من قوى الطبيعة وكذلك قوى المادة فالقضاء ناتج من انتصار قوة على قوة

قوموا بنا اذاً نتعرف سبيل تذليل القوي وترويضها ولا يستقيم لنا ذلك التعرف الا اذا قلقنا كل القلق لان اطمئنان المرء وسكينته تفسده كما ان ركود الماء يفسد الماء الاطمئنان والسكر والغفلة والعجز والنوم اخوة يحزنني ان ارى اكثر المصريين هادئين ناعمين لا يتساءلون عن معنى الحياة كأن الاحياء منهم رفات الاموات .

اكاذيب الحياة

وجدت لكل امة داء وداء هذه الامة انها ترضى من الغنيمة بما لا يروي ظمأً ولا ينقع غلة فهي ان وقعت على المظاهر سكنت اليها ثم لا تلبث ان تجعلها بالمكان الاجل لانها تضع على سيئاتها حجاباً منوعاً وتخلق لها من النفاق والكذب حسنات تخدع ذا البصيرة العمياء والرأي الضئيل . ونفس العاجز تنأى عن الحقائق ذعراً منها وقصوراً عن شأوها الابعد ومرماها الاشرف وهي ان وجدت ما يكسوها مهابة واحتراماً عند قوم يقرنون الفضل الى ضده كانت سريعة التلبس به رغبةً عن النصب واحتمال العثار فهذا نوع من الجبن يقعد بالنفس عن ادراك الفضل الاغر حتى اذا راجعها المرء قالت له أرح خطاك وأبق على قواك فان في النفاق فضلاً لا يعوزك وهل رأيت احداً من اهل الفضل ساد بعد خموله من غير ان يجعل النفاق مدرجة الرقي ثم لا تزال به حتى تأسر عزيمته وتخمد همته والنفس خلابة

ولقد رميت باللحظات والفكر الى سيد ومسود فرأيت المظاهر تفعل بهم ما لا تفعله الخمر بقتلاهـا ولا يلحقه الهوى باسراه فليس الغني في عزه وجاهه بأبعد منها منزلاً من الفقير المتحيل لرزقه ولا الفتاة العذراء باعلق بها حبلاً من العجوز الشمطاء ولا الفتى اليافع باحسن صلة من الرجل الجليد لا والله ولا ينجو من حبـالتها التي هي اوسع من حبالة الامل العـالم الذي يزهى بعلمه وادبه فما ظنك بالدعي الذي هو احوج اليها وهكذا يسلك حبل المظاهر الابن والاب والبنت والأم والسيد والخادم والتلميذ والمعلم والقاضي والمحامي والعصامي والاصيل.

واني محدثك عن صديق صحيح الرأي والفضل الا ان به فرقاً من ذلك الظالم الغصوب الذي يدعونه الرأي العام فكنت اذا عاتبته في شيء اتاه من تلك المظاهر التي تفسد النفس اذرى دمعة يود لو انهـا دمعة التوبة ثم يقول شر النقائص ما تلبس به المرء عن كره له وانت تعلم اني لا آتي من المظاهر الا ما يدفع عني غوائل رأي العامة وتقولهم فيمن خالف مذاهبهم والمداراة احسن حالاً واسلم ما يتذرع به المرء في نفي ما يسوءه ولو علم ذلك الصديق ان المجاراة لا تكون الا في الفضائل وان الناس لم يفسدهم الا نوع من تلك المجاراة حتى اصبحوا مثل الانعام يفعل احدهم السيئة فيتهافتون عليها لمحا تلك الدمعة اللئيمة التي هي شفيع النفاق واستبدلها باصفى منها عنصراً واكرم نسباً وكيف نطيق ذلك الحمل الثقيل الذي يضعه علينا رأي العـامة اذا وضع السنن والعادات وهو رأي الجهلاء في عهد يلقاك احد ابنائه بوجه وقاح كأنه قدّ من أديم النعال فيقول بملء فيه انا كذا ويعزو الى نفسه

من الفضائل واصناف العلوم حتى لكأنه ارتضعها من ثدى أمه

ولقد جعلت من بعض همي ان انقب عن نقائص اهل المظاهر وان اعرضها على هذه الصحف لعلها تكون مرآة ينظرون فيها مالا يبصرونه في انفسهم والمرء عميّ عن عيب نفسه خبير بعيب غيره .

فمن هؤلاء الداهية اللئيم في ثياب الحر الكريم ينصب حباله ويبري نصاله ويشحذ آماله وهو يقول

(يا ليت لي نعلين من جلد الضبع)

ومنهم الصاحب الذي يطوي قلبه على دخل تسره سيئاتك وتسوءه حسناتك ومنهم الداعي الى الدعوات الاجتماعية الذي يدور مع الزمان كما اراد ولا بغية له الا ان يعتلي على رقاب الناس فهو في تنقله مثل خيام العرب

(يوماً بحزوى ويوماً بالخليصاء)

او مثل قلب الوارث اذا سئم من هلوك رده صاحبه الى هلوك ومنهم الشيخ الذي يكيد بصلواته ويعصي الله في خلواته ثم يقول قول الشريف الرضى .

كم عرضوا لي بالدنيا وزخرفها لمع الهلوك فلم ارفع لها راسا
وكيف يقبل رفد الناس محتملاً ذل المطامع من لا يحمد الناسا

ومنهم ذو الثراء الذي لا يرى المجد الا في وسام يجله العيان ويحمده البيان . ومنهم الفتى اليافع الذي ينفق في شراء ملابسه ما لا تنفقه العروس ومنهم قتيل السياسة الذى يطوّف ما يطوف حتى اذا انهك بدنه في نهاره رجع الى بيته بصوت قد بح وارتمى على فراشه ثم تجيء العجائز هذه تصب الماء

والملح في اذنه وتلك تصب الخل في انفه وهو بينهن ينشد قول بشار

ستری حول سریری　　حسراً يلطمن لطماً

ومنهم الوارث الذي يضيع ماله الموروث بين الحان والحسان ثم يتطلع الى اموال الفتيات الوارثات فلا يزال يخدعهن بزي غض ودمع غزير فتهيم الفتاة بين ماله وجماله حتى اذا كانت ليلة الزفاف وعلمت انه خالي الوفاض اخذت باذنه وبرجله وجعلت تقول

وغررتني وزعمت ا　　نك لابن في الصيف تامر

وان خليقاً بنا ان نعرف ان لا حياة لقوم يهتمون بالمظاهر وان نتخلص من تلك السنن والعادات التي تسنها المظاهر والتي تنزع الفضائل من النفس وتضع مكانها حياء مكذوباً وترفعاً عن غير ريبة وتأدباً ظاهره صدق وباطنه نفاق وقد ورد في قصة نوتردام للشاعر الفرنسي الشهير فكتور هيجو ان فرنسا ارادت مرة ان تتغلب على بلاد فلندر فجاء سفراء هذه البلاد الى باريس عاصمة فرنسا رجاء في نزع الغل من صدور المعادين والتماساً للسلم الذي تقوم به المعيشة الطيبة فكانوا على جلالة قدرهم وعظم ثرائهم يجالسون الفقراء والمساكين ويبرون ابناء السبيل ثم اذا جاء وقت الغداء افترشوا الارض وبسطوا امامهم الخبز والجبن وجعلوا يأكلون هنيئاً مريئاً لا يبالون قولة لائم وكان اعاظم الفرنسيين يزدرونهم وينفرون منهم نفار المعمود من طعامه فقال لاعاظم الفرنسيس رجل محنك منهم والله ان هؤلاء لقوم خشن عند الحفيظة اذا لان غيرهم صلبوا وانهم والله لاعظم منا حمية واكثر التماساً للحقائق واقل اهتماماً بالمظاهر وهم على صغر مملكتهم وقلة عددهم

اقوى من ان تهتضمهم لانهم لم تأسرهم المحاكاة

انظروا الى فعل هؤلاء يا قومنا عفا الله عنكم فانا لنعهد منكم ان كلمات الفخر والادعاء اقرب الى افواهكم من قول الحق فكأنها كما قال البحتري

(كالخيل خارجة من حبل مجريها)

اي والله لكانها خيل في حلبة السباق استعارت سرعة البراق ودبيب الترياق . ثم اذا نبغ فيهم الرجل العظيم نبحوه كما ينبح الكلب ضوء القمر

وانما مثل هؤلاء الذين يرضون بحالتنا الاجتماعية وبتلك الاصوات الجائحة في طلب الاصلاح مثل الطفل الصغير الذى اذا نظر الى الماء ورآه ساكناً زعم انه قريب الغور واذا رآه هائجاً مائجاً زعم انه بعيد الغور وهذا خطأ لان قرب الغور ليس من لوازم سكون الماء وكذلك بعده ليس من لوازم هياج الماء

الرغبة في الاصلاح هي سخاء المرء عن ماله وجهده وقوته وجاهه وقدرته وسلطانه في سبيل نفع وطنه وان احسن ما يخدم به وطنه احياء العلم وانماء التربية التي تنعش النفوس فتسرى بها مسرى الرائحة الطيبة في أنف الناشق التعب أو كأنها نفثات المسيح التي كان يحيي بها الموتى وانما مثلنا مثل الرجل الذي اخذه تيار الماء ولكن لم يتوغل به . ثم هو لا يزال قادراً على تخليص نفسه باجهاد قواه اجهاداً شديداً ولكنه اما ان يتهم قواه بالعجز واما ان يتراخى عن اجهادها زعماً منه انه اذا استنجد برجل على الشاطيء اسعفه الرجل ووفر عليه قواه

اذا ظل رأي العامة هكذا قائداً للداعين للاصلاح مرشداً لهم وهم منه

هيابون عيافون لمراجعته صرنا في غمرة واية غمرة

ثم اذا ظللنا هكذا نعتمد على غيرنا كنا كالمتوكيء على الماء او الهواء أو المتخذ من الخيط عصا أو الذى يميل على جسم من قال

ان في بردىّ جسما ناحلا   لو توكأت عليه لانهدم

بين الرغبة في الاصلاح وبين ما يأتي قبلها من دور القول مثل ما بين صوت المدفع وصوت القربة كلاهما عظيم ولكن وراء صوت المدفع من القوة ما يحط الصخور من شماريخ الجبل الاشم وليس وراء صوت فرقعة القربة الا هواء يدخل في فراغ

الامة اغنى من الحكومة واقدر منها على اصلاح امرها وأعرف منها بأماكن الفساد وأعلم منها بطرق اصلاحه ولا ينقصها الا اناس يناصبونها العتاب والعذل والنقد حتى يوقظوها من نومة العجز

اذا اخذت شيئاً من الطين ورميت به الحائط بقى بعضه عليها فاذا فعلت ذلك مراراً كثر ما يبقى على الحائط من الطين وكذلك الرجل المصلح في اجتذاب رأى العامة الذى اذا جعله العلماء قائداً لهم طغى عليهم وازدراهم

يغيظني ان ارى الناس قد شملهم الادعاء واباحوا لانفسهم ان يجهروا بأفكارهم وهي لم تنضج بعد فلا يقرأون من الكتب الا ما كانت آراؤهم تطلع من سطورها ولو انصفوا لاخذوا بقول الفيلسوف الاديب رسكين اذا لم تجد في الذى تقرأه سوى ما يجول فى فكرك من المعاني كان خليقاً بك ان تهجره الى ما تطلع منه غرابة المعاني فتنظر فيها نظر الباحث في المنظار المكبر ثم هو اذا لم يحسن النظر اليها كان خليقاً ان لا يعرف صحتها

مَثَلُ الكتاب اليوم مع القراء مثل الطاهي الذى يتعرف ذوق مولاه في طعامه وشرابه طمعاً في ان يرضيه وهم يرمقون رأى القارئ كما يرمق المنافق مولاه الملك المستبد ويقرظونه باحسن من مِدح الشعراء فى الخليفة هارون الرشيد .

ولقد فاتهم ان الاصل في النقد رغبة الناقد في ان يسل النقص من الفضل فيدعو الفاضل بذلك الى استئناف رقيه في منازل الفضل والناقص الى الخروج عما تلبس به من الضعة فهو اصل من اصول العمران وعامل من تلك العوامل التي تسعى في تهذيب امور الحياة وتنظيم شؤونها واصله الرغبة في الحميد الحسن

ان هذه الحياة منازل يعمرها الناس فمنهم الفاضل ومنهم المفضول فاذا وقع النقد على امرىء في احدى هذه المنازل كان ذلك داعية الى طموحه والطموح سبب من أسباب التعلق بالرغبية والوصول اليها . قال الاستاذ محمد عبده كل نقد حشوه لوم حتى ماكان منه قاصراً عند بث المحمدة والاقرار بالفضيلة فان حمد الكامل عذل الناقص على التقصير وازعاج للمحمود وزجر له عن ملابسة الاعياء فالنقد كما قال الاستاذ لوم لمن وقع عليه وهو ايضاً تنبيه لمن لم يقع عليه فاذا كان وقوع النقد على من هو ارفع منك منزلة في الفضل كان في ذلك اظهار لما انت فيه من الضعة فتأبى نفسك ان تعمرها بعد ذلك وترغب فيما هو اقرب الى الكمال واذا كان وقوع النقد على من هو في منزلة من الفضل مثل منزلتك خفت ان يتعداه اليك فيلحقك منه مالا ترضاه على ان النقد اذا كان آلة في يد من لا يعرف كنهه أو فى يد من

لا يريد أن يقوم به بحيث لا يتعدى معانيه التي وضعت له ومبانيه التي أقيم عليها سهل على المضللين ان يخادعوا الناس عن معاني العظمة والحقارة خذلاناً للحق وانتصاراً لاهوائهم

واذا تقصينا مواقع النقد وعددنا نتائجه عرفنا ان خيره قريب من شره وهما يسلكان مسلكاً واحداً فخيره في عدائه للغرور الذى يحدثه كثير من الثقة بالنفس وشره في عدائه للامل والاطمئنان الذى يحدثه قليل من تلك الثقة

واذا نظرنا فى شؤون الحياة وجدنا ان النقد تختلف ازياؤه ومذاهبه والقائمون به فان العالم الذي له فى البحث عن اصول الاشياء مجيء ومذهب والخطيب الذي يقلب فى فيه مقولا كشقشقة الجمل والشاعر الذي بين قلبه وقوله صلة مثل التي بين اليفين متحابين سواسية فى استعمال النقد وتتبع فضائله ثم اذا نظرنا فى امور الناس وجدنا ان كل انسان ناقد منقود وان العمران لم يستقر الا بما وراء ذلك من التوفيق الى منازل الكمال .

ولقد قال النابغون ما املته عليهم عقولهم من الاراء التي يريدون ان يصلحوا بها نظام المعيشة ولكنهم يودون ان يصلوا بالناس الى غاية الكمال ومنتهى الفضل فيأخذون بأسباب تقصر عن آمالهم على ان رأيي فى هذا لا يقع على رأيهم لان تلك الحياة التي ينشدونها ليست حياتنا التي ننعم بما صلح ونسعى فى تلطيف ما اضطرب من امورها لان منزلة الكمال يتنى عندها التفكير والعمل والاقدام وغير ذلك من الصفات الحميدة التي لا

تكون الا اذا وجدت مجالاً لها وغاية تسعى اليها

وربما قيل اذا اراد مصلح ان يصل بفاسد الى درجة من الاصلاح فانه يدفعه في هذا السبيل الى منزلة أبعد لان السعي يعود باقل منها فاذا زاد عن القدر المطلوب كان وقوعه عليه بسبب اعتراض العقبات ويكون المصلح في هذه الحال مثل الذي يرمي بسهم الى جهة تهب منها الريح فاذا اعطى الريح ما تتطلبه من اجهاده نفسه في ارسال السهم كان موقع السهم موقع آماله فيه واني اقول هكذا يجب ان تكون عزائمهم التي تدفعهم الى الاصلاح ينبغي ان تكون موصولة بابعد مما يريدون منه ولكن الوسائل التي يتخذونها في هذا السبيل يجب ان تكون موافقة لحالة الفاسد الذي يريدون اصلاحه ثم ان للاصلاح طريقين احدهما ان يبتدع المفكر نظرية يحسبها تكفل بتنظيم احوال المعيشة ثم يحمل الاحوال على أن تتحول حتى تشابه هذه النظرية والطريق الثاني ان ينظر المفكر في احوال ما يريد اصلاحه وتاريخها واسباب اجتماعها ثم يستخرج لكل حال وسيلة لاصلاحها مشاكلة لها

ضحايا الحياة

قد يحسب المرء انه يؤثر نفعه بما يسعى اليه في مساعيه وهو يسعى في غير علم الى نفع غيره كالعظيم العبقري الذي يُرضي عواطفه ولا يفهم غاية قوله ولا يدرك تأثيره ولقد يكون قول المفكر كالنهر الذي يختفي في باطن الارض في مكان ليظهر في مكان آخر يجهل اهله مصدره او كالماء الذي نشربه ولا نفطن عند شربه الى انه من ماء المحيط وكل امرىء في الحياة يضحي

كثيراً من حياته لنفع غيره من غير ان يفطن الى ذلك وقد زعم شوبنهور ان قاعدة التناسل هى هذه التضحية اذ ان العاشق يحب من الغواني من يختار ويصطفي فيظن ان ذلك الاختيار من مشيئته وهو من ارادة الحياة العامة التي قد تغري المرء بان يحب نقيضه لما تستقيم به اغراضها ولا تستقيم به سعادته في كثير من الاحايين

والناس كالماء فمن خاف من الناس ان يمتزج نفعه بنفع غيره او ان ينعدم فيه كان كالماء لا يختلط فيركد فيوبى فلا رأي لمن يقول ان اساس الحياة حب النفس لا اساس غيره فليس للحياة قاعدة واحدة بل ان اساس الحياة جانبان نقيضان في كل معنى من معانيها وفي كل قاعدة من قواعدها وفي الآراء والاخلاق وكما ان حب النفس اساس للحياة كذلك التضحية اساس آخر ولا تستقيم الحياة الا بهذه القاعدة المزدوجة انظر الى الاخلاق ترَ انها توسط بين نقيضين كالحزم الذي اساسه الخوف والشجاعة والكرم الذي اساسه الاقتصاد والتبذير ان الرجل العظيم في الامة كالمحرك اعماق الماء قد يودي بصفاء الركود ويهيج القذى كما يهيج الدر والعظيم يخلط بين حب النفس والتضحية في نفوس الناس حتى ينتفي العداء بينهما كي تستقيم اغراض الحياة ويخرج بالناس من النظر الاقرب الى النظر الابعد ومن المعيشة في حقيرات الامور الى المعيشة في الحياة العامة أتحسب ان افراد الجماهير التي تقاتل في حروب اوروبا تبغي باقتحامها اتون الحرب الزبون ربحاً يناله كل فرد ام يسوقهم تغالب الجنسيات الذي هو مظهر من مظاهر روح الحياة ووسيلة من وسائلها وليست التضحية قاصرة على ما اتى المرء عفواً من غير

فطنة اليه بل ان اجل التضحية ما اتى بعد الفكر والتألم في مغالبة النفس وزجرها ولا ينفي هذا الالم لذة يجدها من يختار سبيل التضحية ولا نقول ان كل امرء قادر على اداء مطالب روح الحياة او انه قادر على ان يريد اداء ذلك وامثال هذا يخدمون روح الحياة بالتناسل والمحافظة على القديم من الانظمة وبالاعمال اليومية ولا ننكر عليهم منزلتهم ولكن تنبيه النفوس يوقظ في بعضها من القوى ما لم تفطن اليه هل كان الانبياء والمفكرون والمصلحون لا يفكرون الا في سلامة لحمهم وجلدهم وشهوة بطونهم ؟ وليس اعظم الناس خدمة لمطالب الحياة الخالدة العامة اكثرهم رغبة في خدمتها بل ان كثيراً من العظماء كانوا ينقمون من روح الحياة قهرها اياهم على العمل فيما فيه غداء الجماهير لهم ولكن ينبغي ان لا نظن ان وجود الرغبة امر لا فائدة فيه فان الرغبة تفتق الحيلة ومن لا يقدر على الكثير قد يمكنه القليل وللرغبة على اي حال اثر في عمل المرء وخلقه ولا مراء ان بعض العظماء كانوا غافلين عن نفعهم للنوع البشري وتحقيقهم مطالب الروح العامة فيه ولكني قدمت ان سبب صدق السريرة والتضحية والتضافر احساس المرء ان شخصيته الفانية ليست هي روح الحياة التي تحس فيه فلا يحس غبناً اذا اغرته روح الحياة بتفضيل مطالبها وتحقيقها ولا ننكر على الناس غريزة التوقي وحب النفس ولكننا نوضح انها ليست الاساس الذي لا اساس غيره للحياة وكل رقي في العلوم والآداب والحضارة اساسه التضحية والتضحية لها وقت لا تتعداه فان تعدته كانت اسلوباً من اساليب الندم ولا تكون التضحية ما دام الفرد مقدساً ومن نفع الثورة الفرنسية انها ابانت مزايا تقديس الفرد من الناس ونصرته على

الحكومات الطاغية التي كانت قبل عهدها ولكن بعض فلاسفة القرن التاسع عشر بلغ بالفردية الى منزلة جعل فيها افراد الامة الواحدة كأن كل فرد منهم دولة مستقلة وكأن الحكومة مجلس سفراء بين هذه الدول الصغيرة وعلى هذا القياس يصير لكل فرد حقاً في ان يكون جاهلا او غبياً او ضعيفاً وان له حقاً في ان يموت جوعاً كي لا تأخذ الحكومة من فرديته وحريته بالنظر في امره والتدخل في كل صغيرة من صغائر اموره

ان فكرة التضحية فكرة راسخة في اذهان الناس من القدم الا انهم لم يعرفوا كيف يستخدمونها فكانوا يتقربون الى آلهتهم بالضحايا البشرية ونحن نعبد الله ايضاً بالضحايا البشرية حق عبادته بان نضحي من اموالنا ومساعينا وايامنا ولياليا ومن مجهودنا كل عزيز في سبيل تحقيق مطالب الروح الخالدة التي انما تحقق بما تؤدي اليه المنافسة بين عناصر الحياة والاجناس من تجديد الحضارة ونشرها وبث الفكر واثارة احساس الناس بالحياة فالدين ان يهيء المرء امته قدر استطاعته كي تؤدي نصيبها من الجهاد في سبيل الحياة والعمل لها ومن اجل ذلك كانت الاداب والعلوم والمخترعات واللغات والحضارة من مظاهر جهاد الاجناس ومنافستها واعتلائها كما يتضح لك من حضارة المصريين واليهود والاغريق والرومان والعرب والتوتون

ولما كان اساس التضحية صدق السريرة الذي سببه احساس المرء بحياته العامة صار من يختار سبيلها ينتصر على الهزيمة لانه يصير اسما من الهزيمة منزلة فانما تعترض الهزيمة مطالب الحياة الخاصة ولا تعترض روح الحياة العامة التي تنبه اليها فوجدها في نفسه والسعادة هي اعتقاد المرء انه

اعظم من النجاح والفشل وانه اعظم من ان يجد لذته في ان يكافأ فان لذة النفس العظيمة في ان تعطى الناس من عظمتها اكثر من لذتها في ان تكافأ على ذلك الاعطاء فان النجاح هو إحكام العمل لا مديح الناس وصدق السريرة يشعر المرء كأن نوراً عليه فيسعد بنور الله على ان حب المكافأة على العمل قد يكون ضرباً من ضروب اللؤم كما ان الزهر لا يتطلب جزاء على نفحته ولا المطر على مطرته ولا الشجر على ثمرته كذلك النفس العظيمة لا تتطلب جزاء على عظمتها وحسبها ان صدق السريرة ينبت الشجاعة في النفوس فيبرز منها الشهداء الذين يلتذون آلام الشهادة والذين يعلمون ان الحياة ثمن الموت وانهم ليسوا خليقين بان ينالوا راحة الموت الا بالجهاد في الحياة ان من امكنه ان يعتقد ان غاية الحياة المأكل والمشرب ولم يحتقر نفسه من اجل هذه العقيدة فهو حقير ومن كان لا يعمل الا رغبة في الجزاء وكان يحترم نفسه بالرغم من هذه الخلة فهو حقير ولا تغبط امثال هذا فان وراء لذاته لذات اعظم واجل هيهات ان يلتذها

اكاذيب العشرة

لا مراء ان اكثر اعمال المرء واقواله يرجع الى حب النفس وان كان لها في بعض الاحايين مرجع ثان فان الدوافع المتغايرة قد تشترك في الاغراء بعمل واحد ومن اجل ذلك كانت مودات النفوس ممزوجة بشيء من الاذى يبعثه حب المرء نفسه ورغبته في ان ينتفع بصاحبه فكل امرء يضمر لجليسه شيئاً من الكيد والكره لان نال منه جليسه فيما ينفثه له في

كلامه ممزوجا بشيء من المحبة لان نوله جليسه من نفسه بان سمع ما دسه هو لجليسه من كلامه هكذا عشرة الناس واكثرهم غافل عن بعض نفسه وبعض نفس جليسه وبعضهم يفطن الى ما شرحناه وكلهم يحس انما شرحناه عدلا واذا فطن احدهم الى لؤم هـذه العشرة انكروه وابغضوه وحاولوا اخفاء الحق الذي فطن اليه فانه لا يتهم بها افرادهم حتى يغفر له ذلك بعض الناس ولكنه يتهم كل الناس فلا يغفر له احد

ان لؤم الخلق في عشرتهم كالملح في طعامهم ولا مراء فان الحياة تخرج من الشر خيراً ولولا لؤم الخلق في العشيرين لنبذوا العشرة كما ينبذون الطعام الذى لا ملح فيه فان المرء لا يغفر من لؤم عشيره الا مشاكلته له واقترانه به . وان المرء ليحس انه اذا آلم جليسه كان أحسن منه حالا وهذا الاحساس يرضى المرء عن نفسه ومن أجل ذلك يجلس الناس بعضهم الى بعض كي يجد كل منهم لذة لنفسه في إيلام جليسه فهم يجتمعون كي يسر كل امرئ منهم بجليسه ولكنه سرور معكوس فهو انما يسر به انه فرصة لارضاء نفسه وإشعارها انها أسعد حالا من جليسه بمحاولته خفضه ليرفع من نفسه بخفضه فينشأ من هذه العاطفة المزح السهل البسيط في البيئات المهذبة وينشأ اللؤم والمكر والكيد والاسفاف في البيئات المسفة في الشر المتدلية الى الحضيض منه

فبعض الناس يتصيد الناس في مجالسهم ليسد مجرى كلامهم بهجائك يحسب ان ذلك الهجاء يرفع من شأنه وبعضهم يتلطف اليك حتى اذا أنست به وسكنت اليه ذهب يشيع في الناس انك تتقرب اليه وتتودد له وانما

يفعل ذلك كي يزيد عظما في أعين الناس ومنهم من يتواضع لك لكي تؤاخيه حتى اذا جالسته انتهز مشهد اكابر الناس فيرفع عقيرته كي يوهم الناس ان له دالة عليك وانه أعظم منك منزلة ومنهم من اذا رأى لك حسنة كتمها او مدحها بما يشعر الذم تعريضاً او تصريحاً ثم اذا وجد حسنة لغيرك ذكرها واعاد ذكرها كي تتبرم بما يعني ويقصد اليه من الرغبة في تحقيرك ثم تراه يلوم اهل الحسد موهماً انك منهم ويذم اهل الخبث ويدعى صفاء السريرة وصدقها ويدعى انه مخلص لك

وادعاؤه الاخلاص بعد انتقاصك والكيد لك ضرب من المكر والسب اذ لو عُرف بين الناس بعداوتك ما نال منك قدر نيله منك بادعاء الاخلاص فانه لو عد عدوك خشي ان يحمل الناس تعريضه بك على عداوته فيدعى الاخلاص لك كيما يقول الناس اذا نبهتهم الى مغامزه انك لا تبغي منه الحق وانما تبغي منه مدح المتحيز لك ولو انك شرحت للناس ما شرحناه هنا من لؤمه كي تتقيه لرأى مجالا للتخلص منه بان يمدحك في بعض المجالس مدح المفرط ثم يصفك بسوء الظن كي لا يلومه الناس على مغامزه وكي لا يصدقوك اذا الحت لهم بها وكثير من الناس يخلط في سوء الظن فيعده كله مغالاة ووهماً وقد يكون منظاراً ومن الناس من اذا عرّض بك امامه معرض او ذمك قادح جعل يمدح امامك قادحك وهاجيك كي يؤلمك كأنما يقول لك في تضاعيف كلامه ان قادحك من اهل الصدق والفضل واذا وصفت له خلق ذلك الخبيث عارضك وكأنما يخشى ان يصيبك البطر اذا لم يؤلمك وان من اهل الخبث من يحسب ان الناس لا

يفطنون الى خبثه وهذا قصر في النظر لا يتفق مع ما يوصفون به من العقل ويعدون من العقل ان يحاول المرء ان يكون خبيثاً من غير ان يفطن الناس الى خبثه ويظنون ان الناس لا يتعاشرون الا ليبرّز كل منهم في اساءة عشيره تصريحاً او تعريضاً حسب ما توطئه لهم الظروف وهذا مثل ما يحكى من القصص فقد زعموا ان بين الحشرات حشرات اذا ازدحم مكان بها بالت كل حشرة على اختها كي تخلى لها الطريق وكذلك هذه النفوس الحقيرة فان كل مودة من موداتها دنس ترمي به غيرها كي يقال انها أطهر منها فتنتفع بهذا القول وتتكسب به ومن الناس من لا هم له في معاشرتك الا مدح نفسه امامك فيتطلب منك ان تصغى اليه كانما يلقى عليك علما وحكمة وهو انما يلقي عليك ما يلقى الطبيب على تلاميذه من اوصاف الرمة البالية ومنهم من لا هم له من معاشرتك الا ان يجد منك مادحا له فاذا قصرت في مدحه حقد عليك وأضمر لك السوء ومنهم من يضمر لك البغض اذا لم توطىء له السبيل لانتقاصك فاذا فطنت الى بغضه وكيده عد فطنتك جناية عليه وهذه حقيقة لا خيال فيها وعاطفة تطفو على تلك النفوس لمن كان صحيح البصر كما يطفو القذى على وجه الماء ومن الناس من لا هم لهم الا اخفاء قول مادحك واذاعة قول هاجيك وانما مثلهم مثل الكلب الذي كان اذا غنى صاحبه وأطرب طرب الناس وتصايحوا فيظل الكلب صامتاً حتى اذا أخطأ المغني ولم يفطن الناس فطن الكلب فيملأ الارض نباحا

يظن اهل الخبث ان المرء منهم لا يصح ان يعد خبيثا الا اذا احس خبثه وهذا من الغفلة في الصميم فان المرء لا يقدر ان يحصى او ان يفطن الى

كل ما يغريه به حبه نفسه وايثارها من اصناف اللؤم وحيله وطرقه وقد يكون من لوازم اتيان الخبث استحالة احساسه انه خبث

ومن النـاس من يمدحك مرة ثم يؤلمه مدحه اياك لانه يعد كل مدح لغيره ذماً لنفسه فيحقد عليك ويكيد لك كي يمحو اثر مدحه ومنهم من اذا جلس الى عدو لك ينكر فضلك وكان اعرف به انكره مع عدوك وشايعه على ذمك حتى ينشرح صدر عدوك له فيطري نفسه لعدوك كي يكافئه على مشايعته له في ذمك بتصديقه في اطرائه نفسه وفي بعض الاحايين يجلس عدوك الى صديق لك حتى يسكره من لذة الثناء عليه فينشرح صدر صديقك لعدوك فيملأه ضغينة عليك وكرهاً لك وقدحاً فيك فلا تجد عند صديقك همـة فى المكافحة عنك بل تصح عزيمة صديقك على انتقاصك كي ينال ثنـاء عدوك ومن النـاس من اذا عرفت خبث عشرته تلطف اليك فتحسب انه يواليك فتسهو عن خبثه فيكيد لك في الخفاء

ومن الناس من اذا ذهب الى مرقده جعل يعد ما له وما عليه كالتاجر فيقول أسأت الى فلان مرة واساء الي فلان ثلاث مرات فاكون قد خسرت اساءتين فلا بد ان استعيضها من فلان لا غرو ان في الناس البـله والاغرار ولكن فيهم ذوي الخبث الذين يبيتون يعدون اساءاتهم الى الناس كما يعد الشحيح درهمه ويسهرون يحرسونهـا خشية اللص كما يحرس الشحيح ماله فاحذران تتجاهل هذا الامر وتعد تجاهلك لؤم النفوس انصافاً وعقلا واعتدالاً فتكون كالنعامة التي تدفن رأسها في الارض كي لا ترى قانصها ثم تحسب انه لا يراها لانها لا تراه

ومن الناس من يتغذى بائيلام من تراءت حسناته فان الناس يعدون حسناته جرائم وقد بعثهم الله رسلاً كي يأخذوا صاحبها على التكفير عنها بما يبثون له من الالام والمكايد في مشهد ومغيب وبعض الناس يشكو لؤم الناس وكيدهم وخبثهم كي يعد من الابرار المظلومين لا من الاشرار الظالمين وانما همه ان يلبس لباس الابرار ومن الناس من يأتي اليك فتحسن اليه وتكرمه فيعد اكرامك اياه تخفيضاً لنفسه واحسانك ضعة فيه فيمقتك من اجل احسانك اليه ومثل هذا مثل الرجل الذي اضاف خبيثاً وأحسن اليه وبينما هو بين اليقظة والاغفاء سمع ضيفه يتحرك فرآه قد استل مديته واقترب منه وهمّ ان يطعنه فقام ذلك المحسن فزعاً وقبض على ضيفه الشرير وسأله عن خبره فبكى وقال انى ما احسن الىّ محسن الا ابغضته واغرتني نفسي بان اصيبه باذى وبعض الاغرار ينكر هذه الخلة ولو كان عنده شيء من علم النفس لعلم ان كثيراً من النفوس لا تمقت شيئاً مثل مقتها احسان محسن اذ ان احسانه اقرار بانه اعظم منها في الامر الذى أحسن اليه فيه . ومن الناس من تذكر له معنى حسناً او فكرة حكيمة فيأتي امام الناس يذكرها لك ويسألك عن رأيك فيها فيتوهم الناس ان له فضل ابتداعها ومنهم من يحاول ان يقنعك ان لا فضل لك كأن امثال هذا يخشى ان لا تعزه اذا فطنت الى فضلك وبعض اهل الخبث اذا جلس اليك وكان يخشى منك امراً جعل يدس لك في كلامه من الوعيد ما يوهمك انه لا يخشى مهاجمتك اياه ويستطيل في اتخاذ هذه الوسائل التي هي ادعى لمهاجمتك اياه وانما يفعل ذلك أملاً ان يشعرك الخوف منه فيقول في

كلامه اني اكره رجلاً ولو تمكنت منه لوجأته بسكين ثم ينظر اليك ليرى أثر كلمته في نفسك

والسبب في ان كثيراً من الناس لا يفطن الى حروب اللحظ واللسان التي ميدانها العشرة ان كل رجل منهم مشغول بسلاح لحظه ولسانه الذي يقاتل به ومن رحمة الله ان انشغاله به يلهيه عن جرح لسان غيره في كثير من الاحايين ومن الناس من اذا خلا بك جعل يغلو في مدحك حتى تثق به فاذا كنت امام الناس جعل ينظر اليك نظرات بغض وأنت حائر لا تعرف أتتهمه في اخائه وتعده عامداً ام تعده غير عامد ولكنه لا يلبث حتى يخلو بك فيمجدك تمجيداً يمحو اثر ما وقر في نفسك منه ولكن الناس لم يسمعوا مدحه اياك في خلواتك فلا يشكون في انه عامد ومن الناس من اذا سلم عليك صديق امتعض لان احد الناس التفت اليك ولم يلتفت اليه واذا اكرمك خادم ارتعدت فرائصه وابغضك كل البغض وعد اكرام الخادم اياك اهانة له فاذا جالسته في نادٍ وطلب قهوة بقرش واحد وطلبت قازوزة باربعة قروش عد طلبك كيداً منك كي تكبر في عين الخادم وتصغر من شأنه فاذا ناديت ماسح الحذاء كي يمسح نعليك ولم يشأ هو ان يمسح نعليه عد مسح النعال من الطيش والخبث ومنهم من يلقاك عابساً كي تسأل عن سبب تغاضبه فيعظم بسعيك اليه وسؤالك عنه وتشبثك به ومن الناس من يذمك كي تداريه وتحاسنه وتسعى في ملاطفته ولا بد ان يكون هذا خسيس النفس وكيف يعتز بنفسه من

لا يفهم ان اعتزازك بنفسك ينأى بك عن ملاطفة هاجيك ويغريك بكرهه وابعاده وينفي عنك كل مودة ورغبة له في الخير ومن الناس الخبيث الذي يبرر نفسه بذمك أليس من انصافه نفسه ان تذم لان عرفته ولولا معرفتك اياه ما ذممت ومن الناس من اذا سألك سؤالا فافدته عد علمك به نقصا فيه فيكافئك بالعداوة عليه فان لم تفده عد سكوتك لؤما ونفاقا ومنهم من اذا واجهته بالمودة عدها منك خوفا منه ومداراة له واذا واجهته بالانحجاز وقلة التبسط عد ذلك منك عداوة واهانة له فيضمر لك العداء ومنهم من أفنت خلاعته حياءه يحاول أن يغض منك فينسب اليك سوأته كي يبرر نفسه فتشاركه في سوء الذكر وان لم تشاركه في سوء خلقه فينتقم لنفسه من الفضيلة فيك حتى تيأس من الفضيلة ومنهم من يتلطف اليك حتى تقرن اسمك الى اسمه وتشيد بمدحه فيختلف الى الناس يسبك في كلامه كي يقول الناس انك حقيق بالسب اذ ذمك من ترضاه وتمدحه ولو ان من ذمك كان متهما لديك في مودته مذموما عندك لخالج الناس شك في ذمه اياك ولكنك مادحه ومصطفيه ومرتضيه فكيف يعد قوله كذبا واعلم ان الناس يكفرون عن سيئاتهم بعزوها اليك فيحولون توبيخ ضمائرهم منهم اليك كي يعيشوا عيشة راضية فنصرة الفضيلة بعزو الرذيلة اليك تكفير عن خذلان الفضيلة في انفسهم فاجعل فضيلتك في نفسك لا في السنتهم كي لا تنقم على الفضيلة خذلانها اياك واعلم ان الخوف سبب اسبراع كثير من الناس الى انتقاصك فانهم يخشون ان يعد اعجابهم

عن انتقاصك حباً للرذيلة ومن الناس من يدور في النوادي يذكر الاراء السخيفة ويعزوها اليك ويفندها كي ينال اطراء الناس بالنيل منك

واحذر من أسأت اليه أقل من حذرك ممن أساء اليك فان من أسأت اليه قد يغفر لك اساءتك واما من أساء اليك فانه يذكر ابداً انه أجرم اليك فاذا اكرمك عد اكرامه اياك اعترافا منه بجرمه فيمقتك من اجل اكرامه اياك

ومن الناس من يرى فطنة جلسائه الى كذبه وادعائه ونفاقه فلا ينزجر عن هذه الخصال لانه يعرف ان القول يؤثر في الناس اثره وان عرفوا كذبه وان الادعاء ينال بعض الاعجاب مهما كان واضحاً بالرغم مما ينال ايضاً من السخر والاحتقار وان النفاق في بعض الاحايين يخدع الناس بالرغم من عرفانهم انه نفاق



الفهرس

اصلاح خطأ

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣	٤	الحق	الخلق
٧	١٢	الظاهر	المظاهر
٧	١٥	سيرها	سيرهم
٨	١٨	عومل	عوامل
١٥	٤	فالانان	فالانسان
٢١	١٣	وأن	أن
٤٦	١٨	في الذي	في الكتاب الذي
٥٣	٤	نورا عليه	نوراً من الله واقع عليه
٥٣	٥	كما	وكما
٥٤	٤	عدلا	عدل

اصلاح خطأ

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨	٩	والخوف	وايثار المدح
٥٢	٤	حقاً	حق

مؤلفات
عبد الرحمن شكري

كتاب الاعترافات
كتاب الثمرات
كتاب حديث ابليس
كتاب الصحائف
الديوان فى ستة اجزاء

تحت الطبع

كتاب ادب الشعر
كتاب المدارس
كتاب رسائل الحب
كتاب مظاهر القوة في الحياة

